

الفصل السادس عشر

لوثر: الإصلاح الدينى فى ألمانيا

١٥١٧ - ١٥٢٤

١ - تيتزل

أصدر البابا ليو العاشر فى اليوم الخامس عشر من مارس عام ١٥١٧ أشهر صكوك الغفران . ومما يؤسف شايه - وإن كان له مايسوغه - أن الإصلاح الدينى فرض عليه أن يحارب فى عهد سلطة بابوية جمعت فى روما كثيراً من ثمار عصر النهضة وجانباً كبيراً من روحها ؛ فلقد أصبح ليو ، ابن لورنزو العظيم ، وقتذاك عميداً لأسرة مديتشي ، التى غدت عصر النهضة فى فلورنسا ، وكان بحاثة وشاعراً وسيداً مهذباً رقيق القلب كريماً ، يعشق الأدب الكلامى والفن الرقيق . وكان حسن الأخلاق فى وسط منحل ، ويميل بطبعه إلى المرح المشروع الذى يشيع البهجة فى النفوس ، وأضحى مثالا للسعادة فى مدينة كانت منذ قرن خراباً بلبقاً . وكانت كل أخطائه جميعاً سطحية ، إذا استثنينا سطحيته هو نفسه ، ولم يكن يفرق لإقليلا بين مصلحة أسرته ومصلحة الكنيسة ، وبدد أموال البابوية على شعراء أصالتهم محل شك وعلى حروب هى موضع نظر . وكان متسامحاً فى العادة يستطيب الهجاء الموجه ضد رجال الدين الوارد فى كتاب « الثناء على الطيش » لارازموس ، وقد عمل إلا فى فترات عارضة بالاتفاق غير المكتوب الذى منحت بموجبه الكنيسة فى عصر النهضة حرية لا بأس بها للفلاسفة والشعراء والعلماء - الذين كانوا يوجهون أحاديثهم باللاتينية - إلى الأقلية المتنامية وإن تركوا عقيدة - الجماهير الراضية دون مساس .

وكان ليو ابن مصرفي اعتاد أن يبادر إلى إنفاق المال ، وبخاصة على الآخرين . وورث خزائن بابوية مفعمة بالأموال من يوليوس الثاني وأفرغها قبل أن يموت . ولعله لم يبال كثيراً بالكنيسة الضخمة التي فكر يوليوس في إنشائها وشرع في ذلك إلا أن كنيسة القديس بطرس القديمة لم تكن صالحة للترميم ، وكان لابد أن تتدفق مبالغ كبيرة لإنشاء الكنيسة الجديدة ووجدت سلطات الكنيسة من العار عليها أن تدع هذا المشروع العظيم يقبر في مهده . ولعله عرض في شيء من التردد أن يمنح في عام ١٥١٧ صك غفران لكل من يسهم في نفقات تكلمة هذا المعبد العظيم . واحتج الحكام في إنجلترا وألمانيا وفرنسا وأسبانيا لأن ثروات بلادهم كانت تستنزف ، ولأن اقتصادياتها القومية تتعرض للضرر بالحمولات المتكررة لتحويل المال إلى روما ، وكان ليو أحرص ما يكون على إرضاء الملوك وهم أقوىاء : فوافق على أن يحتفظ هنري الثامن بربع الأموال التي تجمع من إنجلترا وقدم قرضاً قدره ١٧٥,٠٠٠ دوكات إلى الملك شارل الأول (الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد) في مقابل الأموال المنتظر جمعها من أسبانيا ووافق على أن يحتفظ فرانسيس الأول بجزء من المبلغ الذي يجمع في فرنسا ، أما ألمانيا فقد قوبلت بمعاملة أقل كرماء ، فلم تكن فيها ملكية قوية تستطيع أن تساوم البابا ومهما يكن من الأمر ، فإن الإمبراطور ماكسميليان نال مبلغاً متواضعاً قدره ٣,٠٠٠ فلورين من الإيرادات ، وفوض آل فوجر في أن يأخذوا من الأموال التي تجمع مبلغ ٢٠,٠٠٠ فلورين كانوا قد أقرضوه لالبرخت البراندنبرجي لكي يدفعها للبابا لتثبيتته في منصب كبير أساقفة ماينز . ولسوء الحظ كانت تلك المدينة قد فقدت ثلاثة من كهراء أساقفتها في عشر سنوات (١٥٠٤ - ١٥١٤) ودفعت مرتين نفقات باهظة للحصول على تأييد البابا ، ومن ثم اقترض ألبرخت لبعضها من الدفع مرة ثالثة - ووافق ليو وقتذاك على أن أن يتولى رئيس الأساقفة الشباب توزيع صكوك الغفران في ماجدبرج وهالبرشتادت وفي ماينز أيضاً . وكان يصحب كل واحد من واعظي

أبرخت وكيل لآل فوجر يراجع المصروفات والإيرادات وكان يحتفظ بأحد مفاتيح الخزانة التي تضم الأموال (١) .

وكان جوهان تينزل وكيل أبرخت الأول ، وهو راهب دومينيكانى اكتسب مهارة وشهرة فى جمع المال . وكان عمله الرئيسى منذ عام ١٥٠٠ توزيع صكوك الغفران ، وكان يلقى عادة فى هذه المهام عون رجال الدين المحليين وإذا دخل مدينة استقبله موكب من القساوسة والحكام والأتقياء من العامة وهم يحملون الأعلام والشموع ويرتلون الأناشيد ويرفعون نشرة صك الغفران عالية فوق وسادة من الخمل أو وسادة مذهبة فى حين تقرع الكنيسة أجراسها وتعزف على آلات الأرغن فيها ، وهكذا استطاع تينزل (٢) بفضل هذه المساندة أن يقدم بصفة مؤثرة صك غفران كامل لهؤلاء الذين يعترفون بخطاياهم وهم نادمون ويسهمون فى بناء كنيسة جديدة للقديس بطرس حسب ما تسمح به مواردهم :

ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لى من آلام مقدسة وإنا بتفويض منه ومن رسوليهِ المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس منح لى وعهد به إلى فى هذه الأجزاء إن أحلك أولا من كل لوم دينى مهما كانت الطريقة التى تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل إفراط فى الملذات مهما بلغت من الجسامة ، بل حتى من أى إثم تحتفظ بتقريره وإدراكه السدة البابوية ، ويقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفيلك من كل عقاب تستحقه فى المطهر بسبب هذه الآثام ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والطهر اللذين حزتهما فى العباد ، ولهذا فإنك عند ما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم ، وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل فى أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الأب والابن والروح القدس (٣) .

وكانت هذه الصفقة الرائعة بالنسبة إلى مؤمن تتفق مع المفهوم الرسمى

لصكوك الغفران بالنسبة للأحياء ، وها هو اسم تيتزل يتردد مرة أخرى خلال الخطاب المتضمن لتعليمات أسقفه عند ما استغنى عن الاعتراف التمهيدى إذا لجأ المتبرع إلى تقديم صلصك الغفران لروح فى المطهر . ويقول مؤرخ كاثوليكي : ليس من شك فى أن تيتزل أعلن طبقاً لما كان يتصوره من العقيدة المسيحية وفق التعليمات المخولة له أنه لا داعى لشيء سوى تقديم المال للحصول على صلصك غفران للميت فى غير ما حاجة إلى الندم أو الاعتراف . ومن تعاليمه أيضاً ، طبقاً للرأى الذى كان يعتنقه ، أن صلصك الغفران يمكن أن يمنع لأى روح معينة ويكون له أثر لا يخبى . وبناء على هذا الغرض فإن مما لا شك فيه أن مذهبه كان متفقاً مع هذا المثل السائر : « ما أن ترن قطع النقود فى الخزانة حتى تقفز الروح من نار المطهر » . ولم تنص نشرة البابا الخاصة بصكوك الغفران على أى دليل لهذا الرأى . وكان رأيا غامضاً لأنصار فلسفة اللاهوت . . . ولم يكن يمثل عقيدة ما للكنيسة (٤) .

وسمع مايكونيوس ، وهو راهب فرنسيسكانى ربما كان معادياً للمومنيكان بصنيع تيتزل فكتب تقريراً عن هذا العام ١٥١٧ ، يقول : « إن ما قاله هذا الراهب الجاهل وبشر به أمر لا يصدق . لقد أعطى خطابات مختومة ضمنها أن الخطايا التى يعتزم المرء أن يرتكبها سوف تغفر له ، وقال إن البابا يملك سلطاناً يفوق سلطان الرسل والملائكة والقديسين ، بل يفوق سلطان العذراء مريم نفسها ، لأن هؤلاء جميعاً كانوا أتباعاً للمسيح أما البابا فإنه نداء للمسيح » . وقد يكون فى هذا مبالغة ، ولكن مثل هذا الوصف يمكن أن يقدمه أى شاهد عيان يشير إلى ما يشره تيتزل من مقت . ومثل هذا العداء يبدو فى الشائعة التى ذكرها لوثر (٥) فى ارتياب والتى استشهد بها تيتزل عند ما قال فى هال إنه إذا حدث المستحيل واغتصب رجل أم الرب فإن صلصك الغفران كفىل بأن يحو عنه هذا الإثم . وحصل تيتزل على شهادات من السلطات المدنية والكهنوتية فى هال بأنهم لم يسمعوا القصة قط (٦) . كان بائعاً متحمساً ولكنه لم يكن يفتقر تماماً إلى الضمير .

وكان يمكن أن ينجو من حكم التاريخ لو لم يقترب كثيراً من أراضي
فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا(*) . وكان فردريك حاكماً ورعاً
حسن التدبير ، ولم يكن لديه اعتراض من الناحية النظرية على صكوك الغفران
وقد جمع ١٩,٠٠٠ من مخلفات القديسين في كنيسة قصره بفيتنبرج (٧) ، واتخذ
التدابير اللازمة للحصول على صك غفران يرتبط بتوقيعها كما حصل على
صك غفران آخر للمتبرعين بالأموال اللازمة لبناء قنطرة في تورجاو ،
وعهد إلى تيتزل بأن يعلن عن فوائد هذا الصك البابوي (٨) ، ومهما يكن من أمر
فإنه أمسك من البابا الكسندر السادس (١٥٠١) المبلغ الذي جمع في إمارة
سكسونيا بموجب صك غفران يمنح مقابل التبرعات اللازمة للحرب الصليبية
ضد الأتراك ، وقال إنه سوف يرفع يده عن المال عند ما تتجسم الحرب
الصليبية في صورة مادية ، ولما لم يتحقق هذا قط احتفظ فردريك الحكيم
بالأموال واستخدمها في بناء جامعة بفيتنبرج (٩) . وحرّم في أرضه وقتذاك
التبشير بصك غفران عام ١٥١٧ مدفوعاً بنفوره من السماح لعملة ساكسونيا
بالمهجرة ، أو لعل هذا كان بدافع من التقارير عن مبالغات تيتزل ؛ بيد أن تيتزل
اقترب كثيراً من الحدود حتى أن أهالي فيتنبرج عبروا الحدود للحصول
على صك الغفران ، وجاء عدد من المشتريين لهذه « الرسائل البابوية » بها إلى
مارتن لوثر أستاذ علم اللاهوت في الجامعة وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها
فرفض ، وتراعى الرفض إلى مسامح تيتزل فتوعد لوثر وهكنا نخلد اسمه
في التاريخ .

(*) في عام ١٤٨٥ قسمت أملاك آل فتين إلى إقليمين . وكان القسم الأصغر والأغنى ،
ويشمل ليهنجر ودرسدن من نصيب الابن الأصغر الدوق ألبرت ، وأصبح هذا القسم يعرف
باسم دوقية ساكسونيا أو ساكسونيا الأبرشية . أما القسم الأكبر وهو أقل سكاناً ويشمل
فيتنبرج وفيهار فأصبح من نصيب الأخ الأكبر وهو إرنست الأمير المختار الإمبراطوري وعرف
باسم ساكسونيا إمارة المختار أو ساكسونيا الإرنسية ، وكان لهذا القسم شأن يذكر في حركة
الإصلاح الديني .

كان قد أساء تقدير خصام الأستاذ إذ أن لوثر سرعان ما ألف باللاتينية خمساً وتسعين رسالة أطلق عليها اسم *Disputatio pro declaratione virtutis indulgentiarum* « بحث في بيان قوة صكوك الغفران » . ولم يعتبر آراءه من قبيل الهرطقة ولم تكن كذلك بكل تأكيد . وكان لا يزال كاثوليكياً متحمساً ليست لديه أدنى فكرة لقلب الكنيسة كان غرضه أن يدحض الادعاءات المغالى فيها بشأن صكوك الغفران وأن يصحح المساوئ التي تنشأ عن توزيعها . وشعر بأن سهولة إصدار صكوك الغفران والإتجار فيها على نطاق واسع قد أضعف الإحساس بالندم الذي يجب أن يثيره ارتكاب الإثم ، وجعل الخطيئة تبدو أمراً تافهاً يمكن تسويته ودياً بصفة تعقد مع بائع يتجر بالغفران ، ومع ذلك فإنه لم ينكر « السلطة » البابوية في غفران الخطايا ، وسلم بسلطة البابا في إحلال (إعفاء) النادم المعترف من العقوبات الدنيوية التي يفرضها عليه رجال الكنيسة ولكن وجهة نظر لوثر هي أن سلطة البابا في تحرير الأرواح من المطهر أو في تقليل مدة عقابها ، هناك تتوقف لا على السلطة التي تمثلها مفاتيح بطرس الرسول والتي لا تصل إلى أبعد من القبر - ولكن تتوقف على تأثير الشفاعة لصلوات البابا ، وهي قد تسمع وقد لا تسمع . (الرسائل : ٢٠ - ٢٢) يضاف إلى هذا كله أن لوثر قال إن كل المسيحيين يشاركون آلياً في خزينة الفضائل التي كسبها المسيح والقديسون حتى وإن لم ينص خطاب بابوي بالغفران على منحهم مثل هذا النصيب . وأعني البابوات من مسئولية مبالغت الوعاظ ، ولكنه أردف في خبث : « إن التبشير المطلق العنان بالغفران يجعل من الصعب حتى على الناس المتعلمين ، أن ينقدوا الاحترام الواجب للبابا من التساؤلات الذكية اللامحة للعامة : لم لا يفرغ البابا مطهراً من أجل الحب المقدس والحاجة الملمحة للأرواح الهائمة هناك إذا كان يفترى . . . عدداً من الأرواح من أجل المال التعس الذي يبني به كنيسة ؟ (رسائل من ٨١ - ٨٢) .

وفي وقت الظهيرة في اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ١٥١٧
ألصق هذه الرسائل على الباب الرئيسى لكنيسة القصر فى فيتنبرج ، وفى
اليوم الأول من نوفمبر فى يوم عيد جميع القديسين عرضت هناك المخلفات
المقدسة التى جمعها الأمير المختار ، وكان من المتوقع حضور جمع غفير . ولا شك
أن عملية إعلان هذه الرسائل على الجمهور ، والتى قام بها مقدمها لمواجهة كل
المتحدين ، كانت عادة قديمة فى جامعات القرون الوسطى وأن الباب الذى
استخدمه لوثر فى لصق هذا الإعلان به ، كان قد استخدم بانتظام لوحه
النشرات الأكاديمية . وقدم لهذه الرسائل بدعوة ودية تقول :

بدافع من الحب للعقيدة والرغبة فى تسليط الضوء عليها سوف تناقش
الآراء التالية فى فيتنبرج تحت رعاية الأب الموقر مارتن لوثر ، أستاذ الآداب
واللاهوت المقدس والمحاضر الثبت لنفس العلم فى ذلك المكان . ولهذا يرجو
من هؤلاء الذين لا يستطيعون الحضور والجدال شفويّاً أن يفعلوا هذا
بخطاب .

وقام لوثر بترجمة هذه الرسائل إلى الألمانية ووزعها على الناس لكى
يتأكد من أنها سوف تفهم على أوسع نطاق . وأرسل نسخة من هذه الرسائل
إلى ألبريخت كبير أساقفة ماينز بجرأة لا نظير لها ، وهكذا بدأ الإصلاح
الدينى فى جو من الرقة والورع وعن غير قصد .

٢ - تكوين لوثر

ترى ما هى ظروف الوراثة والبيئة التى صاغت من راهب مغمور ،
فى مدينة لا يتعدى سكانها ثلاثة آلاف نسمة داود الثورة الدينية ؟ كان
أبوه هانز رجلاً صارماً فظاً يستثار بسهولة ، ومناهضاً لرجال الدين ، وكانت
أمه امرأة نحجولا متواضعة تكرر كثيراً من أوقاتها للصلاة ، وكان كلاهما
مقتضداً . وعمل هانز فلاحاً فى موهراتم اشتغل بالتعدين فى مانسفيلد ، إلا أن

مارتن ولد في أيسلبيين في اليوم العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ ، وأعقب والداه بعده ستة أطفال . وكان هانز وجريتا يؤمنان بالعصا كوسيلة سحرية لتقوم الأخلاق ، ويقول مارتن إن أباه ثابر على ضربه يوماً حتى إنهما ظلا زمناً طويلاً يناصب كل منهما الآخر العداوة ، وفي مناسبة أخرى جلده أمه حتى سال دمه لأنه سرق جوزة . وقال مارتن مفكراً فيما بعد : « إن الحياة الخشنة القاسية التي عشتها معهما هي التي دفعتني إلى أن ألتجأ فيما بعد إلى الدير وأصبح راهباً » (١٠) . وليس من شك في أن صورة الرب التي نقلها له والداه عكست مزاجهما الخاص . أب قاس وقاس صارم يطالب بفضيلة عبوس ويطلب استرضاءه دائماً ويلعن أخيراً الجانب الأكبر من البشر ويدعو عليهم بأن يخلدوا في النار . وكان والداه كلاهما يؤمنان بوجود سمرة وعفراريت وملائكة وشياطين من فصائل متعددة وتخصصات متنوعة ، وحمل مارتن معه حتى النهاية معظم هذه الخرافات . وهكذا أسهم دين قام على الفرع في بيت يحتفل بالتأديب الصارم في تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية .

والتحق بمدرسة في مانسفيلد كان الطلبة يتلقون فيها مزيداً من العصى وكثيراً من الوعظ وجماد فيها مارتن خمس عشرة مرة في يوم واحد لأنه أخطأ في إعراب اسم . وعند ما بلغ الثالثة عشرة من عمره نقل إلى مدرسة ثانوية تديرها جمعية دينية في ماجديبرج ، وفي سن الرابعة عشرة حول إلى مدرسة سانت جورج في أيزيناخ ، وأمضى ثلاث سنوات سعيدة نسبياً أقام فيها بمنزل السيدة كوتا المريح . ولم ينس لوثر قط قولها إنه ليس على ظهر الأرض ما هو أتمن للرجل من حب امرأة فاضلة . وكانت هذه نعمة لم يظفر بها إلا بعد اثنين وأربعين عاماً ، وفي هذا الجو الصحي استكمل السحر الطبيعي للشباب ، إذ كان سليماً معافى صريحاً ومنشراحاً من الناحية الاجتماعية . وكان يحسن الغناء والعزف على العود .

وأرسله والده الميسور الحال عام ١٥٠١ إلى الجامعة في أرفورت ، وكان

برنامج الدرس يركز على اللاهوت والفلسفة ، وكانت لا تزال كلامية ولكن المذهب الإسمي لأوكهام كان قد انتصر هناك ، ولعل لوثر قد فطن إلى رأى أوكهام الذى يذهب إلى أن البابوات والمجالس الدينية يمكن أن تخطئ ، وكان من رأيه أن فلسفة الكلام فى أية صورة من صورها غير مستحبة حتى إنه امتدح لصديق له « ألا يتعلم الروث الذى يقدم باعتباره فلسفة » (١١) .

وكان فى أرفورت بعض علماء الإنسانيات المعتدلين ، وتأثر بهم قليلا ولكنهم لم يهتموا به عندما وجدوه يحتفل بالعالم الآخر . وتعلم قليلا من اليونانية والنذر اليسير من العبرية ولكنه قرأ أمهات الكتب الكلاسيكية باللاتينية ، وحصل عام ١٥٠٥ على درجة الماجستير فى الآداب ، فأرسل له أبوه المزهو به نسخة غالية من مجموعة قوانين البلد هدية بمناسبة تخرجه . واغتنب عند ما بدأ ابنه فى دراسة القانون . وفجأة بعد شهرين من هذه الدراسة قرر الشاب أن يصبح راهباً ، الأمر الذى أفرغ والده .

وهذا القرار يعبر عن التناقض فى خلقه ، فقد كان قوياً يفيض بالحياة إلى حد الانغماس فى الشهوات ، وكان من الواضح أنه خلق لحياة برضى فيها الغرائز الطبيعية ، ومع أنه لاقى فى البيت والمدرسة عن اقتناع أن الإنسان آثم بطبعه ، وأن الإثم معصية لإله قادر على كل شئ شديد العقاب ، فإنه لم يوفق قط ، فى الفكر أو فى السلوك ، بين غرائزه الطبيعية وبين معتقداته المكتسبة . ويبدو أنه عندما كان يمر بالتجارب الغرامية العادية ونزوات المراهقة لم يستطع أن ينظر إلى هذه التجارب على أنها مراحل من التطور ، بل رأى أنها من أعمال شيطان نذر نفسه للإيقاع بالأرواح فى لعنة أبدية لا فكاك منها . وكان مفهومه الذى لاقى له عن الله لا يكاد يشمل أى عنصر من الحنان ، ولم يكن لصورة مريم المواسية موضع كبير فى هذا اللاهوت القائم على الخوف ، ولم يكن يسوع هذا هو الابن المحب الذى لا يستطيع أن يرفض طلباً لأمه ، بل كان عيسى فى يوم الدينونة الذى كثيراً ما صور فى

الكنائس ، المسيح الذى هدد الحاطين بعذاب جهنم الأبدى . وليس من شك
فى أن الفكرة المتواترة عن الجحيم وضعت غشاوة على عقل كان شديد
التمسك بتعاليم الدين بحيث نسيها وهو ينتهب لذة الحياة كل يوم . وبينما كان
عائداً يوماً من بيت أبيه فى أرفورت (يوليو سنة ١٥٠٥) واجهته عاصفة
رهيبه ، ولمع البرق حوله ، وأصاب الصاعقة شجرة قريبة منه ؛ ونخيل للوثر أن
هذا إنذار من الله وأنه ما لم يكرس أفكاره للإخلاص فسوف يفاجئه الموت
ويلقى حتفه دون أن يسمع اعترافه وتطارده اللعنة . ترى أين يستطيع أن يحيا
حياة ينصرف فيها إلى التعبد ؟ إن هذا لا يتيسر إلا حيث يقيم حاجزاً بينه
وبين العالم والشهوة والشيطان ، بين أربعة جدران ، أو يقهر النفس بالانصراف
إلى التقشف ، ونذر عهداً للقديسة آن أنه لو نجا من هذه العاصفة فسوف
يصبح راهباً .

وكاى هناك عشرون ديراً فى أرفورت فاختر واحداً عرف بالإخلاص
فى مراعاة قواعد الأديرة ، وهو دير الرهبان الأوغسطينيين ، ودعا أصدقاءه
جميعاً وشرب وغمى معهم فى حفل قال لهم إنه يقوم به لآخر مرة وفى اليوم
التالى استقبال فى خلوة بدير كبتدى فى الرهينة ، وقام بأحق الأعمال فى
تواضع لا يخلو من الاعتزاز بالنفس ، وتلا الصلوات مراراً وتكراراً كمن
نوم نفسه تنوماً مغناطيسياً ، وتجمد جسده فى مضجع بارد وصام وعذب
نفسه ، أملا فى أن يطرد من جسده الشياطين وقال : « كنت راهباً ورعاً
أراعى أحكام الطائفة التى أنتمى إليها بشدة إلى حد أنه . . . إذ قدر لراهب
أن يدخل الجنة عن طريق الرهينة فلأنى أدخلها لا محالة . . . ولو أن هذا
الأمر طال أكثر من هذا لكنت عذبت نفسى حتى الموت بالسهر والصلاة
والقراءة وغيرها من الأعمال » (١٢) . وفى إحدى المناسبات عند ما اختفى عن
الأميين بضعة أيام اقتحم أصدقاؤه عليه خلوته فوجدوه يرقد على الأرض
غائب الوعى ، وكانوا قد أحضروا معهم عوداً وعزف عليه واحد منهم فاسترد
قواه وشكرهم . وفى سبتمبر عام ١٥٠٦ أقسم قسماً مغلظاً بأن ياتزم

الخصاصة والعفة والطاعة ، وفي مايو عام ١٥٠٧ رسم قساً ومحضه زملاؤه الرهبان نصيحة ودية وأكد له أحدهم أن عذاب المسيح إنما هو تكفير عن طبيعة الإنسان الخاطئة وأنه فتح للتائب أبواب الجنة .

وما قرأه لوثر عن الصوفيين الألمان وبخاصة عن تاولر أعطاه أملاً في أن يجتاز الشجرة الرهيبة بين روح تنزع بطبيعتها إلى الخطيئة وبين إله مقسط قادر على كل شيء . ثم وقعت في يديه رسالة بقلم جون هس فساورته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحي . وتساءل قائلاً : « ترى لماذا أحرق رجل استطاع أن يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة ؟ لقد أغلقت الكتاب وأشحت بوجهي وقلبي جريح» (١٣) . وأولى جوهان فون شتاوبتز ، وهو قسيس إقليمي من الرهبان الأوغسطينيين ، الراهب القلق ، اهتماماً أبويًا ، وأمره أن يستبدل بالتقشف قراءة الكتاب المقدس وتعاليم القديس أوغسطين بكل عناية . وأعرب الرهبان عن جزعهم لما أصابه فأعطوه كتاباً مقدساً باللاتينية - وكان وقتذاك من المقتنيات النادرة - بالنسبة لأي فرد .

وفي أحد أيام عام ١٥٠٨ أو عام ١٥٠٩ استرعت انتباهه عبارة وردت في رسالة القديس بولس إلى الرومان (١ : ١٧) « إن الحق يحيا بالإيمان » وقادته هذه الكلمات في بطاء إلى العقيدة التي تذهب إلى أن الإنسان يمكن أن يزكى - أي يرجع إلى الصواب وينجو من النار - لا بالأعمال الطيبة التي لا يمكن أن تكفي أبداً للتكفير عن معصيته لإله لا حد لقدرته ، بل بالإيمان المطلق بالمسيح وبتكفيره عن خطايا البشر . ووجد لوثر في تعاليم أوغسطين فكرة أخرى لعلها جددت من مخاوفه - تلك هي القدر - أن الله قدر حتى قبل الخلق أن تحظى بعض الأرواح بالخلاص وأن يزرع بالباقي في جهنم ، وأن الاختيار تم بمشيئة الله أن يكون الخلاص بالتضحية بالمسيح . ومن هذا المجال الصريح فر مرة أخرى إلى أمله الأساسي في الخلاص عن طريق الإيمان .

وحول عام ١٥٠٨ نقل إلى دير أوغسطين في فيتنبرج بناء على توصية من

شتاوبيتز ، وعين في وظيفة معلم للمنطق والفزياء ، ثم عين أستاذاً للاهوت في الجامعة . وكانت فيتنبرج عاصمة الشمال - وقلما كانت محل إقامة - لفردريك الحكيم وقال أحد المعاصرين عنها : « مدينة فقيرة لا أهمية لها بيوتها خشبية صغيرة ، قديمة قبيحة الشكل » ووصف لوثر السكان بقوله : « إنهم سكارى يفتترون إلى التهذيب منغمسون في العربة إلى حد يجاوز الاعتدال ، وقد اشتهروا بأنهم أشد الناس إدماناً على الشراب في ساكسونيا التي كانت تعد أعظم مقاطعة في ألمانيا يغرّم أهلها بالشراب » . وقال لوثر إن الحضارة انتهت على بعد ميل من الشرق وبدأت الهمجية وظل هناك الجانب الأكبر من حياته إلى نهاية أيامه .

ولا بد أنه قد أصبح راهباً مثالياً وقتذاك لأنه أرسل في أكتوبر من عام ١٥١٠ مع زميل له من الرهبان ، إلى روما في مهمة غامضة للرهبان الأوغسطينيين ، وكان أول رد فعل عنده لدى مشاهدته المدينة رهبة مشوبة بالورع ، فسجد ورفع يديه وهتف يقول : « سلاماً عليك يا روما المقدسة ! » وقام بكل الشعائر شأنه شأن أي حاج ، وانحنى في إجلال أمام مخلفات القديسين وصعد على السلم المقدس *Scala Santa* وهو يسير على ركبتيه ، وزار عشرين كنيسة وظفر بكثير من صكوك الغفران ، حتى إنه تمنى أو كاد لو كان والداه ميتين حتى يستطيع أن ينقذهما من المطهر . وارتاد المنتدى الروماني ولكن كان من الواضح أنه لم يتأثر بفن عصر النهضة ، وكان رافائيل ومايكلائجلو ومئات غيرهما قد بدأوا في تزيين العاصمة . وظل سنوات عديدة بعد القيام بهذه الرحلة دون أن يقوم بتعليق واضح جلي على تعلق رجال الدين الرومان بالدنيا ، أو على الاحلال الخلقى الذى كان شائعاً وقتذاك في المدينة المقدسة . ومهما يكن من أمر فإنه بعد عشر سنوات وصف روما عام ١٥١٠ بأنها « تدعو للمقت » ولا يزال من هذا المزيد في ذكرياته التي تتسم بالخيال المتوقد ، والتي تخطر له أحياناً في أحاديثه حول مائدة الطعام في سن الشيخوخة .

وقال إن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين وإن اثنتى عشرة فتاة عارية
كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوي وقت العشاء» (١٤) . ومن المحتمل أنه
لم يتيسر له الدخول في أوساط رجال الكهنوت الكبار ولم تكن له معرفة
مباشرة بأخلاقهم المنحلة التي لا شك فيها .

وارتقى بسرعة في المناصب التعليمية بعد عودته إلى فيتنبرج « فبراير
عام ١٥١١ » ونصب نائباً للأستقف في طائفته . وألقى محاضرات في انكتاب
القدس ، وقام بالوعظ بانتظام في كنيسة الأبرشية ونهض بعبء العمل في
وظائفه بجد وولاء . ويقول عالم كاثوليكي مشهور : « إن خطاباته الرسمية
تم على اهتمام شديد بالدين ساورتهم الشكوك وتفيض بعطف رقيق على
الآثم وتنتصح عن لمسات عميقة من الشعور الديني والرأي العملي النادر وإن
كانت لم تخل من تشويه نصائح لها اتجاهات مخالفة للعقيدة ، وعندما اجتاحت
اطاعون فيتنبرج عام ١٥١٦ لزم مكانه بشجاعة ، ورفض أن يتخلى عنه على
الرغم مما أبداه أصدقاؤه من قلق » (١٥) . وخلال هذه السنوات (١٥١٢ -
١٥١٧) تحولت آراؤه الدينية ببطء عن المذاهب الرسمية للكنيسة . وبدأ
يتحدث عن « لاهوتنا » مقابل ما كان يدرس في أرفورت . وفي عام ١٥١٥
عزا ما أصاب العالم من فساد إلى رجال الكهنوت الذين قالوا للناس كثيراً
جداً من أمثال وحكايات خرافية من إبداع البشر وليست من الكتب المنزلة ،
واكتشف عام ١٥١٦ مخطوطة ألمانية مجهولة المؤلف أيد ما بها من التقوى
الصوفية رأيه في اعتماد الروح الكلي في الخلاص على رحمة الله إلى حد أنه
أعدّها للنشر وطبعها باسم « لاهوت ألماني Theologia Germanica » .
ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغنران لاستغلالهم سداجدة الفقراء ، وبدأ
في مراسلاته الخاصة يبرهن على أن « ضد المسيح » الوارد في الرسالة الأولى
ليوحنا شبيه بالبابا (١٦) . ودعاه الدوق جورج صاحب البرتين ساكسونيا عام

١٥١٧ إلى الوعظ في درسدن ، فأثبت بالدليل أن مجرد قبول فضائل المسيح يحقق الخلاص للمؤمن . وشككا الدوق من أن مثل هذا التشدد في الإيمان أكثر من الفضيلة « سوف يجعل الناس مغرورين ومتمردين فحسب » (١٧) ، وبعد ثلاثة شهور تحدى الراهب المشهور العالم إلى مناظرته في الرسائل الخمس والتسعين التي علقها في كنيسة فيتنبرج .

٣ - الثورة تتخذ شكلا

قد توحى الصورة التي حفرها كراناخ على الخشب عام ١٥٢٠ أن لوثر في عام ١٥١٧ كان راهباً حليق الرأس متوسط القامة رشيق الجسم إلى حين ، وله عينان واسعتان يمان على العزم الجاد ، وأنف كبير وذقن يدل على قوة العزيمة ووجه يفصح في هدوء لا في لجاجة عن الشجاعة وقوة الشخصية ، ومع ذلك فإنه كتب هذه الرسائل بدافع من الغضب المتسم بالإخلاص لا عن جرأة حمقاء ولم ير فيها الأسقف المحلي شيئاً من الهرطقة ولكنه تصح لوثر في لطف ألا يكتب شيئاً آخر في الموضوع لفترة ما . وقد هال المؤلف نفسه ما أثاره من غضب . وفي مايو عام ١٥١٨ أبلغ شتاوبنز أن أمله الحقيقي هو أن يقضى حياته في عزلة هادئة ولكنه كان يخدع نفسه فقد كان تالذ له المعركة .

وأصبحت الرسائل حديث الطبقة المتعلمة في ألمانيا . كان الآلاف ينتظرون احتجاجاً كهذا ، وهللت الحركة المضادة لرجال الدين وانطلقت من عقابها إذ وجدت صوتاً يعبر عنها . وقل الإقبال على شراء صكوك الغفران . ولكن كثيراً من أنصاره تصدوا لمواجهة التحدى وأجاب تيتزل ، بمعاونة بعض المحترفين ، في « مائة وست رسالة مضادة » (ديسمبر عام ١٥١٧) . ولم يسلم فيها بأي شيء ولم يقدم أي اعتذار بل « إنه أصدر في بعض الأحيان

حكماً لا يقبل التفاهم مؤيداً لآراء لاهوتية بحتة لا تكاد تتفق مع أعظم الدراسات
دقة» (١٨) . وعند ما وصل هذا المؤلف إلى فيتنبرج وعرضه بائع جوال للبيع
تألبت عليه جمهرة من طلبة الجامعة ، وأحرق المخزون لديه وقدره ٨٠٠ نسخة
في ساحة السوق - وهو إجراء استهجنه لوثر في جنبل . ورد على تيتزل في
« عظة حول صكوك الغفران والرحمة » ، ونختمها بقوله في تحد لا نظير له :
« إذا كنت هرطيقاً في نظر من تعانى أكياس نقودهم من الحقائق التي أذكرها
فإني لا أبالي كثيراً بصياحهم لأنه لا يقول هذا إلا من رانت على عقولهم
غشاوة فلم يعرفوا قط الإنجيل» (١٩) .

وأطر جاكوب فان هوجسترايتن الكولوني ، لوثر وأبلا من عبارات
التنديد ، واقترح أن يحرق على السارية ، وأصدر جوهان إيلك ، نائب مدير
جامعة انجولشتادت كتيباً باسم Obeilsci (مارس عام ١٥١٨) اتهم فيه
لوثر بنشر « السم البوهيمي » (هرطقات هس) وتقويض النظام الإكليريكي
بأسره .

وفي روما نشر سيلفستر بريرياس ، رقيب الأدب البابوي ، حواراً « يؤيد
فيه سيادة البابا المطلقة بألفاظ لا تخلو تماماً من المبالغة وبخاصة عند ما يبسط
نظريته إلى نقطة خاصة بالتجارة في صكوك الغفران ليس لها سند ولا
عليها دليل» (٢٠) .

ورد لوثر في كتيب اسمه Resolutions قرارات (ابريل عام ١٥١٨)
وأرسل نسخاً منه إلى أسقفه المحلي وإلى البابا - مع تأكيدات بالمحافظة والطاعة
في كلتا الحالتين وتحدث النص في رفق عن ليو العاشر : « على الرغم من أن
في عالم الكنيسة رجالاً يجمعون بين العلم والقداسة فإن من سوء طالع عصرنا
مع ذلك أنهم لا يستطيعون أن يمسدوا يده المعونة للكنيسة وها نحن
أولاء نجد حبراً أعظم لا يبارى هوليو العاشر ، يمتاز بكمال وعلم هما بهجة
لكل آذان الناس الطيبين ، وراكن ماذا يستطيع أن يفعل وحده أرق الرجال

قلباً في مثل هذه البلبلة الكبيرة بين الأمور مهما كان جديراً بأن يحكم في أوقات خير من هذه ؟ . . . إننا في هذا العصر لا نستحق إلا بابوات من أمثال يوليوس الثاني وألكسندر السادس . . . إن روما نفسها - نعم روما ، أكثر من الكل ، تسخر الآن من الناس الطيبين ، ترى في أي جزء من العالم المسيحي غير روما ، حصن بابلون الحقيقي ، يهزأ الناس بحرية من أحسن الأساقفة ؟ » وأكد ليو مباشرة خضوعاً غريباً بقوله : « أيها الأب المبارك أقدم تحت أعتاب قداساتك تذلي وخضوعي بكل ما أكونه وما أملك هيا وسارع ، واقتل وادع واستدع واستحسن واستهجن إذا راق ذلك في نظرك . إني سأقر بأن صوتك هو صوت المسيح ، إذ يقيم في جسده ويتحدث . وإذا كنت أستحق الموت فلن أرفض أن أموت » (٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن كتابة قرارات Resoluciones كما لاحظ مستشارو ليو أكد أن المجلس المسكوني أعلى رتبة من البابا ، وتحدث مستخفاً عن الخلفات المقدسة وعن الحج وأنكر فضائل القديسين الزائدة وتبذ كل الإضافات التي قام بها البابوات في القرون الثلاثة الأخيرة على نظرية صكوك الغفران وممارستها ، ولما كانت هذه مصدراً له أهميته للدخول البابوي ولما كان ليو في حيرة لا يدرى كيف يمول مشروعاته الإنسانية ومنازله وحروبه وإدارة وتنفيذ برنامج بناء الكنيسة أيضاً فإن الخبر الأعظم الذي استبد به القلق ، والذي لم يعبأ في مبدأ الأمر بالنزاع باعتباره ضيقة عابرة بين الرهبان تصدى للأمر وأخذه وقتذاك على عاتقه واستدعى الوثر إلى روما (٧ يوليو سنة ١٥١٨) .

وواجه لوثر قراراً حرجاً فحتى إذا عامله أرق البابوات برفق فإنه قد يجد نفسه ملزماً بإيثار الصمت في أدب واعتقال نفسه في دير روماني وبسرعان ما ينساه هؤلاء الذين يهتفون له الآن . وكتب إلى جورج سبالاتان القسيس الخاص بالأمير المختار فردريك يقترح عليه أن يبادر الأمراء الألمان بحماية

مواطنيهم من التسليم الإيجباري لإيطاليا فوافق الأمير إذ كان يجلب لوثر الذي كان له الفضل في نجاح جامعة فيتنبرج ، وفضلاً عن هذا فإن الإمبراطور ماكس رأى أن لوثر ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها في نزاعه الدبلوماسي مع روما فأشار على الأمير المختار أن « يهتم جداً بذلك الراهب » (٢٣) .

وفي هذا الوقت نفسه كان الإمبراطور قد دعا المجلس النيابي الإمبراطوري إلى الاجتماع في أوجسبورج للنظر في طلب البابا فرض ضريبة على ألمانيا للمعاونة في تمويل حملة صليبية جديدة ضد الأتراك فرجال الإمبراطور (كما رأى ليو) يجب أن يدفعوا عشر دخلهم والعلمانيون جزءاً من اثني عشر جزءاً من دخلهم ، وكل خمسين من أرباب البيوت يجب أن يجهزوا رجلاً ورفض المجلس النيابي بل أنه على التقيض سجل مرة أخرى . . . المظالم التي كانت تهيء الدعامة التي قام عليها لوثر ، وأوضح للقاصد الرسولي أن ألمانيا كثيراً ما فرضت على نفسها الضرائب للحملات الصليبية فوجدت أن الأموال تنفق في أغراض البابا الأخرى وأن الناس يعارضون بشدة أية تنازل آخر عن المال لإيطاليا وأن المبالغ السنوية التي تدفع للبابا عن ريع أول عام ورسوم التثبيت الديني ونفقات القضايا الكنسية المحالة إلى روما كانت عبئاً ثقيلاً لا يطاق ، وأن التبرعات الألمانية كانت تعطى مثل ثمار البرقوق إلى القساوسة الإيطاليين . وقال أحد النواب إن مثل هذا الرفض الجريء للمطالب البابوية لم يعرف قط في تاريخ ألمانيا (٢٤) . وعند ما لاحظ ما كسمليان روح الثورة بين الأمراء كتب إلى روما ينصح بالحرص في معاملة لوثر ، ولكنه وعد بالتعاون في القضاء على الهرطقة .

وكان ليو ميالا أو مضطراً إلى التسامح ، والحق أن مؤرخاً بروتستانتياً عزا انتصار الإصلاح الديني إلى اعتدال البابا (٢٤) واستبعد الأمر بمثل لوثر أمامه في روما ، وبدلاً من ذلك أمره بأن يمثل أمام الكاردينال كاجيتان في أوجسبورج وأن يجيب على التهم الموجهة إليه بالخروج على النظام والهرطقة . وأصدر

تعليماته إلى قاصده الرسول بأن يعرض على لوثر صفحاً كاملاً ومناصب في المستقبل إذا تراجع عن أقواله وأقر بذلك وإلا فإنه سوف يطلب من السلطات الزمنية أنه ترسله إلى روما (٢٥). وفي الوقت نفسه أعلن ليو عن نيته في تقديم تكريم لفردريك طالما تطلع إليه الأمير المختار الورع - ألا وهو « الوردية الذهبية » التي كان البابوات يمنحونها للحكام الزمنيين الذين يودون أن يخصصهم بأرفع هباتهم ، ولعل ليو عرض وقتذاك أن يؤيد فردريك كوارث للعرش الإمبراطوري (٢٦) .

وقابل لوثر في أوجسبورج الكردينال كاجيتان وهو متسلح بجواز أمان من الإمبراطور (١٢ - ١٤ أكتوبر عام ١٥١٨) ، وكان الكردينال رجلاً متضلعا في اللاهوت ويعيش حياة مثالية ، ولكنه أساء تفسير وظيفته على أنه قاض وليس دبلوماسياً ، ورأى أولاً وقبل كل شيء أن الأمر مسألة تتعلق بالنظام الكنسي وضبطه : هل يسمح لراهب أن ينتقد علناً رؤسائه - الذين أقسم أن يدين لهم بالطاعة وأن يدافع عن آراء أديانها الكنيسة ؟ ورفض أن يناقش صحة آراء لوثر أو خطأها وطالبه بأن يسحب أقواله وأن يتعهد ألا يعكر صفو الكنيسة . ولم يستطع أحدهما صبراً على الآخر ، وعاد لوثر إلى فيتنبرج دون أن يتوب وطلب كاجيتان من فردريك أن يرسله إلى روما فأبى فردريك . وكتب لوثر بياناً شائقاً عن المقابلات نشر في أرجاء ألمانيا ، وعند ما قدمه إلى صديقه فينتسل لينك أضاف قائلاً : « أرسل لك عملي التافه لكي ترى ما إذا كنت مخطئاً في رأي ، طبقاً لتعاليم بولس ، أن المناهض الحقيقي للمسيحية يسيطر على البلاط الروماني وأنا أعتقد أنه أسوأ من أي تركي » (٢٧). وفي خطاب أكثر اعتدالاً بعث به إلى الدوق جورج طالب بقوله : « يجب التيام بإصلاح ديني عام للطبقات الروحية والزمنية » (٢٨) والمعروف أن هذه هي المرة الأولى التي استخدم فيها الكلمة التي أضفت على ثورته اسمها التاريخي .

واستمر ليو في محاولاته للتوفيق ، فأصدر نشرة بابوية في التاسع من نوفمبر عام ١٥١٨ أنكر فيها كثيراً من المزاعم المتطرفة التي نسبت إلى صكوك الغفران ، فهذه لا تمحو الآثام أو الذنوب ولكنها تعني فحسب من العقوبات الدنيوية التي فرضتها الكنيسة - لا المحكام الزمانيون - أما بالنسبة لإطلاق سراح الأرواح من المطهر فإن سلطة البابا محدودة بصلواته التي يبتهل فيها إلى الله أن يمنح روح ميت البركة الزائدة للمسيح والقديسين . وفي الثامن والعشرين من نوفمبر قدم لوثر طلباً إلى مجالس عام يستأنف فيه حكم البابا . وفي ذلك الشهر نفسه عهد أيو إلى كارل فون ميلتيز ، وهو نبيل من الطبقات الصغرى في روما ، بأن يأخذ « الوردة الذهبية » إلى فردريك وأن يقوم أيضاً بجهد سلمى للوردة بلوثر « ابن الشيطان » إلى حظيرة الطاعة (٢٩) .

وعند ما وصل ميلتيز إلى ألمانيا دهش عند ما وجد أن نصف أهالي البلد يجاهرون بالعداء للسلطة الرومانية وأن من بين كل خمسة من أصدقائه في أوجسبورج ونورمبرج ثلاثة يؤيدون لوثر . وفي ساكسوني كان الشعور المناهض للبابوية قوياً إلى حد أنه تنصل من كل الدلائل التي تشير إلى أنه مبعوث بابوي . وعند ما التقى بلوثر في ألتنبورج (٣ يناير سنة ١٥١٩) وجدته صريحاً يوثر أن يقرع الحججة بالحجة ولا يهاب أخذاً . وربما كان لوثر في هذه المرحلة يتوق في إخلاص إلى الحفاظ على وحدة العالم المسيحي الغربي . وقام بتنازلات كريمة : أن يلزم السكوت إذا التزم خصومه بذلك وأن يكتب رسالة يعلن فيها خضوعه للبابا وأن يقر علناً بصحة الصلوات للقديسين وبحقيقة المطهر وبفائدة صكوك الغفران في الإغفاء من العقوبات الكنسية وأن ينصح الناس بالولاء للمسلم للكنيسة ، وفي غضون ذلك يجب أن تعرض تفاصيل الخلاف على أسقف ألماني يقبله الطرفان (٣٠) للفصل فيها . فسر ميلتيز كثيراً وانطلق إلى ليبتيبيج واستدعى تيتزل وعنفه على تطاوله واتهمه بالكذب وخيانة الأمانة وعزله فانزوى تيتزل في دير ومات بعدها بقليل (١١ أغسطس سنة ١٥١٩) وتلقى ، وهو على فراش الموت ، خطاباً

رقيقاً من لوثر يؤكد له فيه أن بيع صك الغفران لم يكن إلا مناسبة وليس سبباً للفتنة و « أن المسألة لم تكن قد بدأت من أجل ذلك ولكن لأن للموضوع الوليد أباً آخر » (٣١) . وفي الثالث من مارس كتب لوثر رسالة إلى البابا يعلن فيها خضوعه التام فرد عليه ليو بروح ودية (٢٩ مارس) ودعاها للحضور إلى روما ليبدل باعترافه ، وعرض عليه مالا لتغطية نفقات رحلته (٣٢) . ومهما يكن من أمر فإن لوثر ، في تناقض صريح كان قد كتب إلى سبالاتان في الثالث عشر من مارس : « إني في حيرة لا أدري هل البابا مناهض للمسيح أم أنه رسوله » (٣٣) . ورأى في هذه الظروف أن من الأسلم له أن يبقى في فيتنبرج . وهناك كانت الكلية والطلبة والمواطنون يعطفون في الغالب على قضيته ، ولقد أسعده بصفة خاصة أن يلقى التأييد من شباب ألمعي ، عالم بالإنسانيات واللاهوت ، كان قد عينه الأمير المختار عام ١٥١٨ وهو في الحادية والعشرين من عمره لتدريس اللغة اليونانية بالجامعة . وكان فيليب سفارتسرت (الأرض السوداء) قد صبغ اسمه بالهيلينية وغيره إلى ميلانكتون على يد عمه العظيم رويخلين ، كان رجلاً صغير القامة ضعيف البنية ، يعرج في مشيته ، وله تقاطيع لطيفة ، وحاجبان مرتفعان ، وعينان تمان عن الحجل ، وقد أصبح مفكر الإصلاح الديني هذا محبوباً في فيتنبرج إلى حد أن خمسمائة أو ستمائة من الطلبة كانوا يتجمعون في قاعة محاضراته ، بل إن لوثر نفسه الذي وصفه بأنه « يتحلى بكل فضيلة معروفة للإنسان » (٣٤) كان يجلس في تواضع بين تلاميذه . وقال أرازموس : « إن ميلانكتون رجل رقيق الحاشية فحتى أعداؤه يذكرونه بالخير » (٣٥) .

كان لوثر يلذ له الصراع بينما كان ميلانكتون يوثر المسألة والتراخي ، وكان لوثر يؤنبه أحياناً على أنه حلیم أكثر مما يجب ، إلا أن أنبل بجانب للوثر وأشدّه اعتدالاً قد اتضح في حبه الذي لم ينقطع لرجل يختلف عنه في المزاج والسياسة . « لقد خلقت للحرب والقتال مع الأحزاب والشياطين ، ومن هنا فإن كتبي عاصفة خليقة بمحارب . لا بد أن أجتث جذور جذوع

الأشجار وبقاياها وأن أنتزع الأشواك وأقلم نباتات الأسوار وأن أردم الحفر ،
فأنا خبير بالأحراج وأستطيع أن أقترح فيها طريقاً وأن أهيب الأمور ، أما
الأستاذ فيليب فإنه يسير في رفق وهدوء ويفلح الأرض ويزرع ويبذر
ويستقى وهو مسرور كما حباه الله في سحاء» (٣٦) .

وثمة أستاذ آخر في فيتنبرج لمع ببريق أشد من بريق ميلانكتون ذلك هو
أندرياس بودينشتاين ، المعروف من محل ميلاده باسم كارلشتادت ، وقد انضم
إلى هيئة التدريس بالجامعة وهو في الرابعة والعشرين من عمره (١٥٠٤)
وفي الثلاثين عين أستاذاً لكرسى الفلسفة التومية واللاهوت . وفي اليوم
الثالث عشر من إبريل عام ١٥١٧ سبق احتجاج لوثر التاريخي بنشر ١٥٢
مقالاً ضد صكوك الغفران . وكان في مبدأ الأمر معارضاً للوثر ولكنه سرعان
ما تحول إلى نصير غيور حتى لقد قال عنه الثائر العظيم « إنه أشد تحمساً مني
للأمر » (٣٧) . وعند ما تحدى إيك في كتابه *Obelisci* رسائل لوثر دافع عنها
كارلشتادت في ٤٠٦ قضية منطقية وإحدى هذه القضايا المنطقية تحتوي على
أول بيان محدد بالألمانية عن الإصلاح الديني الألماني وعن سلطة الإنجيل
العليا على مراسم الكنيسة وتقاليدها . فرد إيك وتحدها أن يدخل معه في
مناظرة علنية ، فوافق كارلشتادت في الحال وقام لوثر بعمل التدابير اللازمة ،
ثم نشر إيك بياناً أورد فيه قائمة بثلاثة عشر مقالا عرض أن يقيم عليها الدليل
في المناظرة . وجاء في إحداها « نحن ننكر أن الكنيسة الرومانية لم تكن أعلى
من الكنائس الأخرى قبل عهد سيلفستر وقد اعترفنا لشاغل كرسي بطرس
بأنه خليفة المسيح ونائبه » . ولكن لوثر وليس كارلشتادت هو الذي
أثار في كتابه « قرارات » *Resolutions* مسألة أن الساطة الرومانية في
القرون الأولى من المسيحية لم يكن لها من السلطان ما يزيد على سلطان عدة
أساقفة آخرين من أساقفة الكنيسة ، وشعر لوثر بأن هذا التحدى موجه له وزعم
أن مقال إيك قد حرره من عهده الذي قطعه على نفسه بالتزام السكوت
وقرر أن ينضم إلى كارلشتادت في المباراة اللاهوتية .

وفي يونيو عام ١٥١٩ انطلق المحاربان إلى ليبتسيج يصبحهما ميلانكتون

وستة أساتذة آخرون ، ويرافقهما ٢٠٠ طالب من فيتنبرج في عربات ريفية وهم مسلحون ومسربلون بالدروع وكأنهم مقبلون على معركة ، والحق أنهم كانوا يدخلون أرضاً معادية للوثر . وفي القاعة الكبيرة المفروشة بالطنافس في قلعة بلايسينبورج ووسط جمهرة من المشاهدين المتلهفين وتحت رئاسة الدوق المحافظ جورج صاحب ألبرتين ساكسوني بدأ إيك وكارلشتادت المشاقفة بين القديم والجديد (٢٧ يولية) . ولم يكده أحد في ليبتسبورج يعبأ بأن إمبراطوراً جديداً سوف ينتخب غداً في فرانكفورت الواقعة على المين .

وبعد أن عانى كارلشتادت أياماً من براعة إيك العالية في المناظرة ناب لوثر عن فيتنبرج . وكان ألمعياً قوى الحججة في النقاش ، ولكنه كان قليل المبالاة إلى درجة التهور ، فأنكر بشدة رئاسة أسقف روما في أيام المسيحية الأولى وذكر أشد مستمعيه كراهة بأن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية الواسعة الانتشار لا تزال ترفض سيادة روما ، وعند ما هاجم إيك رأى لوثر وقال إنه إنما يردد وجهة نظر هس التي أدانها مجلس كونستانس ، رد لوثر بقوله إن المجالس المسكونية يمكن أن تخطيء وأن كثيراً من آراء هس كانت صحيحة وعند ما انتهى هذا الجدل (٨ يولية) كان إيك قد وصل إلى غرضه الحقيقي - وهو أن يستدرج لوثر إلى أن يرتكب بنفسه جريمة هرطقة محددة ، فقد تحول الإصلاح الديني من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية على العالم المسيحي .

وانطلق إيك إلى روما وقدم إلى السدة البابوية تقريراً عما دار من نقاش وأوصى بجرمان لوثر من غفران الكنيسة ، ولكن ليوم يكن متعجلاً إلى هذا الحد إذ كان لا يزال يراوده الأمل في حل سلمي ثم إنه كان بعيداً جداً عن ألمانيا فلم يدرك مدى ما بلغت الثورة ، كما أن مواطنين بارزين مبجلين من أمثال جوهان هولتسشور و لازاروس شبينجلر وفيليبالد بيركهايمر ، دافعوا عن لوثر ودعا ديرر له بالنجاح وكان علماء الإنسانيات يطلقون

وابلا من الكتيبات تطعن في البابوية بكل ما استوعبه العصر من نقد جارح .
وعند ما وصل أولريخ فون هوتن إلى أوجسبورج عام ١٥١٨ تحول بقصائده
ضد نداء ليو بجمع الأموال للحرب الصليبية وأعرب عن أمله في أن يذهب
الجباة إلى الوطن بحقائب خاوية . وعند ما بلغت أنباء المناظرة في ليبتنيج
جى لوثر كمنحرر لألمانيا وشرع قلمه ابتداء من ذلك الوقت سيفاً مصلتاً
للدفاع عن الإصلاح ، وانخرط في سلك فرسان فرانتس فون سيكنجن -
الذين كانوا يتلهفون على الثورة - وأغراه على أن يقدم إلى لوثر كل التأييد
والحماية اللتين يمكن لعصبة المسلحة أن تزوده بهما ، ورد لوثر معبراً عن
تقديره الحار ، ولكنه لم يكن على استعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن
شخصه .

وفي مارس عام ١٥٢٠ نشر هوتن مخطوطة ألمانية قديمة كتبت في عيد
الإمبراطور هنرى الرابع (حكيم من ١٠٥٦ - ١١٠٦) ، وكانت تؤيد
هنرى في صراعه مع البابا جريجورى السابع ، وأهدى الكتاب إلى الإمبراطور
الشاب شارل الخامس إشارة إلى أن ألمانيا تتوقع منه أن ينتقم لإذلال هنرى
وهزيمته . وقال هوتن إن تحرير ألمانيا من روما أشد إلحاحاً من صد الأتراك .
« في الوقت الذى رأى فيه أجدادنا أنه لا يخلق بهم أن يخضعوا للرومان
عند ما كان هؤلاء أعظم أمة حربية في العالم نجد أننا لا نخضع لهؤلاء العبيد
المخشين المنغمسين في حماة الشهوة والترف فحسب بل إننا تعرض أنفسنا
للاغتصاب ونهبي لهم إرضاء شهواتهم الحسية » (٢٨) . وفي إبريل عام ١٥٢٠
أصدر هوتن أول سلسلتين من **Gesprache** وهو محاورات منظومة لعبت
دوراً لا يفوقه إلا مؤلفات لوثر ، وذلك في الإعراب عن الرغبة القومية في
الاستقلال عن روما واستنهاضها ووصف روما بأنها : « دودة ضخمة تمتص
الدماء » . وضح بأن « البابا زعيم لص وأن عصابته تحمل اسم الكنيسة . . .
وروما بحر من الدنس وحماة من القذارة وبالوعة ليس لها قرار من الظلم .

ألا يجدر بنا أن نتقاطر من كل حذب وصوب لنقوم بإزالة هذه اللعنة الشائعة التي حاقت بالبشرية ؟ » (٣٩) ، وأقام أرازموس الحججة مع هوتن ليلاطف من أسلوبه وحذره ودياً بأنه في خطر وعرضة للقبض عليه . واختبأ هوتن نفسه في قلاع سيكيينجن واحدة إثر أخرى ولكنه استمر في حملته . وبصح الأمير المختار فرديك باستيلاء السلطة الزمنية على كل ثروة الأديرة ، وأوضح الوجوه السامية التي يمكن لألمانيا أن تنفق فيها الأموال التي ترسل سنوياً إلى روما (٤٠) .

ولكن مركز الحرب ظل في فيتنبرج الصغيرة . وفي ربيع عام ١٥٢٠ نشر لوثر موجزاً به ملاحظات عنيفة استشهد بها أحدث المزايم التي لا تلين والتي يرددها علماء اللاهوت المحافظون عن سيادة البابوات وسلطانهم . وقابل لوثر التطرف بالتطرف : « إذا كانت روما تؤمن وتعلم بمعرفة البابوات والكرادلة (التي أرجو ألا تكون تلك هي الحالة) فلن أعلن بحرية في هذه الكتابات بأن المناهض للمسيحية الحقيقي يجلس في معبد الرب ويحكم في روما - بابل هذه المصيوغ بلون الأرجوان - وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان . . . وإذا استمر هياج أنصار روما على هذا النحو فلن يكون أمامنا من علاج سوى أن يتولى الأباطرة والملوك والأمراء ، تحيط بهم القوة والأسلحة ، مهاجمة هذه الأوبئة في العالم وحسم الأمر بالسيف لا بالكلمات . . . وإذا كنا نقضى على اللصوص بالمشانق ونضرب أعناق الناهبين بالسيوف ونلقى بالهراطقة في النار فلماذا لا نهجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء ، أعني هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ، ونغسل أيدينا في دماهم ؟ » (٤١) .

وأصدر كارلشتادت فيما بعد في العام نفسه « كتيباً » De Canonicis Scripturis libelus جعل فيه الكتاب المقدس يعلو على البابوات والمجالس

الدينية والتقاليد والأناجيل أعلى من الرسائل الإنجيلية ، ولو أن لوثر اتبع هذا الخط الأخير لكانت البروتستانتية قد أصبحت أقل بولسية وأوغسطينية وجبرية كان كتاب libellus على رأس عصره في الشك في تأليف مؤسس للأسفار الخمسة (التوراة) وصحة الأناجيل ولكنه كان ضعيفاً في حجته الرئيسية : فقد قرر صحة الكتب الإنجيلية أستناداً إلى الروايات المأثورة عن القرون الأولى ثم رفض الرواية التي تؤيد الكتب الثابتة على هذا النحو .

وتشجع لوثر بتأييد ميلانكتون وكارلشتادت وهوتن وسيكنجن فكتب إلى سبالاتان (١١ يونية سنة ١٥٢٠) : « لقد أقيت الرد . وأنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاهم . ولن أهادنهم إلى الأبد . . . فليدينوا ويحرقوا كل ما يمت لي بصلة ، وأنا في مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير . . . إني لم أعد اليوم أخشى أحداً وسوف أنشر كتاباً باللغة الألمانية عن الإصلاح المسيحي وهو موجه ضد البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت أوجهها إلى مناهض للمسيحية » (٤٢)

٤ - نشرات بابوية ملتهبة

أصدر ليو العاشر في اليوم الخامس عشر من شهر يونية عام ١٥٢٠ بشرة أدان فيها واحداً وأربعين بياناً للوثر ، وأمر بأن تحرق علناً مؤلفاته التي ظهرت فيها ، وأنذر لوثر بأن يتراجع عن أخطائه وأن يعود إلى حظيرة الدين . وإذا رفض أن يأتي إلى روما في خلال ستين يوماً ويسحب أقواله علناً فإنه سوف يبتز من عضوية العالم المسيحي بحرمانه من غفران الكنيسة ، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطيقاً ، وسوف تتوقف العبادة في جميع الأماكن التي يقيم فيها ، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها أو تسلمه إلى روما

وأعلن لوثر نهاية عهد التسامح بنشر أول كتاب من الكتيبات الثلاثة

التي كونت برنامج الثورة الدينية . وكان حتى هذا الوقت قد كتب باللغة اللاتينية مخاطباً الطبقات المستنيرة ، أما الآن فإنه كتب باللغة الألمانية - كوطنى ألماني - خطاباً مفتوحاً إلى أشرف الأمة الألمانية المسيحيين بشأن إصلاح طبقة رجال الدين ، وشمل نداءه « استغاثة بالنبيل الشاب » الذي كان قد اختير منذ عام إمبراطوراً باسم شارل الخامس « وأثعم به الله علينا ليكون زعيماً لنا وبهذا ينعش في كثير من الأفتدة آمالاً كباراً في الخير » (٤٣) . وهاجم لوثر « الجدران الثلاثة » التي شيدها البابوية حول نفسها وهي : التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين وحق البابا في أن يفسر الكتاب المقدس على هواه ، وحقه المطلق في دعوة مجلس عام للكنيسة ، وقال لوثر إن كل هذه الدعاوى الدفاعية يجب أن تهدم . فأولا ليس هناك فرق حقيقي بين رجال الإكليروس والعلمانيين إذ أن كل مسيحي ينصب قساً بالتعميد ومن ثم فإن على الحكام الزمانيين أن يمارسوا سلطاتهم « دون عائق أو اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيئون إلى البابا أو الأسقف أو القس . . . وكل ما نص عليه القاتون الكنسي مما يناقض ذلك من خالص بنات أفكار الوقاحة الرومانية » (٤٤) . وثانياً بما أن كل مسيحي يعد قساً فإن له الحق في أن يفسر الكتب المقدسة طبقاً لما يراه (٤٥) . وثالثاً : يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر فالكتاب المقدس لا يقدم أية بينة على حق البابا المطلق في دعوة مجلس . وإذا كان ينشد بالحرمان من غفران الكنيسة أو التحريم أن يمنع مجلساً ، « فإننا يجب أن نستخف بسلوكه كأنه تصرف رجل مجنون ونقذفه بحرمانه معتمدين في ذلك على الله ونقمته بقدر الإمكان » (٤٦) . ويجب دعوة مجلس في أقرب وقت وعليه أن يفحص المفارقة الفظيعة في أن زعيم العالم المسيحي يعيش في ترف دنيوى يفوق ما يحلم به أى ملك ولا بد أن يضع هذا حداً لاستيلاء رجال الدين الإيطاليين على التبرعات الألمانية وأن يقلل إلى واحد في المائة من « زمرة الهوام » الذين يشغلون في روما مناصب دينية تدر عليهم دخلاً دون أن يؤدوا عملاً ويعيشون بصفة أساسية على الأموال التي يسلبونها من ألمانيا .

« لقد قرر البعض أن أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جولدن تجده طريقها كل عام من ألمانيا إلى إيطاليا . . . وها نحن أولاء نصل إلى لب الموضوع . . . كيف يتأتى أن يكون لزاماً علينا نحن الألمان أن نتسامح في مثل هذه السرقة ومثل هذا السلب لأملاكنا على يدي البابا؟ . . . وإذا كنا بحق نشنق اللصوص ونضرب أعناق السارقين بالإكراه فكيف نسمح للشه الروماني أن يفلت من العقاب؟ ذلك لأنه أكبر لص وسارق بالإكراه جاء أو يمكن أن يجيء إلى العالم بل وشرهم قاطبة بالاسم المقدس للمسيح والقديس بطرس ومن في وسعه بعد هذا أن يتحمل أو يلزم البسكوت؟ » (٤٧) .

لماذا يتحتم على الكنيسة الألمانية أن تدفع هذه الجزية الدائمة إلى سلطة أجنبية؟ فليخلص رجال الدين الألمان من تبعهم لروما ولينشثوا كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفة ماينز . إن أوامر الاستجداء يجب أن تقل ويجب أن يسمح للقساوسة بالزواج ويجب ألا تؤخذ عهود الرهبنة قبل سن الثلاثين ، وأن تلغى التحاريم والحج وشعائر القداس على أرواح الموتى . . . والعطلات (ما عدا أيام الآحاد) وعلى الكنيسة الألمانية مصالحة الهسبين في بوهيميا ، إن هس أحرق دون أن يشفع له حصوله على جواز الأمان من الإمبراطور ، وفي أية حال فإننا « يجب أن نتغلب على الهراطقة بالكتب لا بالحرق » (٤٨) « ويجب أن ينبذ كل قانون كنسي وألا يكون هناك إلا قانون واحد يطبق على رجال الدين والعلمانيين على السواء — « يجب علينا فوق كل شيء أن نطرد من الأراضي الألمانية مبعوثي البابا بكل ما لهم من « قوى » — وهي التي يبيعونها لنا مقابل مبالغ كبيرة من المال — لإقرار الأرباح الجائرة ، للتحلل من الأقسام والعهود والاتفاقيات بحجة أن البابا له سلطة القيام بهذا العمل — وإن كان هذا خداعاً لا مرأه فيه . . . وإذا لم يكن هناك أضاليل خبيثة أخرى لإثبات أن البابا هو المناهض الحقيقي للمسيحية فإن هذا الشيء يكفي لإثبات هذا . أتسمع هذا أيها البابا ، ولا أقول أقدم الرجال بل أكبرهم إثماً؟

ثق بأن الله رب السموات سوف يقوض عرشك قريباً ويغرقه في هاوية
البحيم . . . يا سيدى المسيح أطل علينا من عليائك ودع يوم قصاصك
يشرق ودمر عش الشيطان فى روما! (٤٩)

وأصبح هذا الهجوم العنيف الذى قام به رجل ضد سلطة تشمل كل
أوروبا الغربية ، حديث ألمانيا ، فالخدرون من الرجال عدوه من قبيل الإفراط
والتهور وعده الكثيرون من بين أعظم الأفعال البطولية فى تاريخ ألمانيا .
وسرعان ما نفذت أول طبعة من كتاب «خطاب مفتوح» وشغلت مطابع
فيتنبرج بإخراج طبعات جديدة . وكانت ألمانيا مثل إنجلترا ، مهياة لتقبل
الدعوة إلى القومية ولم يكن هناك إبان هذا العهد دولة اسمها ألمانيا على الخريطة
ولكن كان هناك ألمان بدأوا يشعرون بأنفسهم كشعب . وبما أن هس قد أكد
وطنيته البوهيمية ، وبما أن هنرى الثامن لم يذب العقيدة الكاثوليكية بل رفض
أن يمتد سلطان البابا إلى إنجلترا ، فإن لوثر وقتذاك زرع بذرة الثورة لافى
صحارى اللاهوت بل فى الأرض الخصبه لروح ألمانيا القومية وحيثما فازت
البروتستانية حملت القومية العلم .

وفى سبتمبر عام ١٥٢٠ أصدر إريك وجيروم الياندر منشور الحرمان
من غفران الكنيسة فى ألمانيا فرد عليهم لوثر الطعنة بإصدار بيان ثان هو :
«الأسر البابلى للكنيسة» (٦ أكتوبر) ولما كان موجهاً إلى علماء اللاهوت
والدارسين فإنه عاد إلى الكتابة باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم البيان وكان
له تأثير عظيم على العقيدة المسيحية قارب تأثير «خطاب مفتوح» على التاريخ
الدينى والسياسى . فكما قاسى اليهود طويلاً من الأسر فى بابل فإن الكنيسة
كما أنشأها المسيح ، وكما نص عليها فى العهد الجديد قد تعرضت للأسر
ما يزيد على ألف عام تحت حكم البابوية فى روما . وفى خلال تلك الفترة
تعرض دين المسيح إلى الفساد فى الإيمان والأخلاقيات والشعائر . وبما أن
المسيح قد أعطى حواريه نبيلاً ونخبزاً فى العشاء الأخير فإن المهسين كانوا

على حق فيما ذهبوا إليه : إذ يجب أن يناول القربان المقدس بكل الشككين كما يشاء الناس ، والقس لا يغير الخبز والنبيذ إلى جسد ودم المسيح ، فليس هناك قس يملك هذه القدرة الصوفية ، ولكن المسيح سيجيء روحياً ومادياً لكل من يتناول القربان المقدس لا عن طريق أى تحول معجز على يد أحد القساوسة بل سيجيء بإرادته وقوته ، فهو حاضر في القربان المقدس مع الخبز والنبيذ عن طريق التجاسد لا عن طريق التجسيم (٥٠) . ورفض في هلع الفكرة التي تذهب إلى أن القس يقدم المسيح إلى أبيه في القداس قرباناً للتكفير عن خطايا البشر ولو أنه لم يجد ما يفزعه في الفكرة التي تقول إن الرب قد سمح للبشر بأن يصلبوا الرب قرباناً للرب تكفيراً عن خطايا البشر .

وأضاف بعض المستحدثات الأخلاقية إلى هذه الأمور الدينية التي تدق على الفهم ، فالزواج ليس قرباناً مقدساً لأن المسيح لم يقطع على نفسه عهداً بأن يبث فيه الرحمة الإلهية وقال « إن زيجات الأقدمين لم تكن تقل قداسة عن زيجاتنا كما أن زيجات الكفار ليست أقل صحة من زيجاتنا » (٥١) . وعلى ذلك يجب ألا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين « فكما آكل وأشرب وأنا مأمشئ . . . وأتعامل مع وثني أو يهودي أو تركي أو هرطبي فإن في وسعي أن أتزوج من أي واحدة من نسايتهم ، فلا تبالوا بالقانون الذي سنه الأحمق لتحريم هذا . . . إن الشخص الوثني سواء كان رجلاً أو امرأة خلقه الله كما خلق القديس بطرس والقديس بولس والقديسة لوسي » (٥٢) . وأي امرأة تتزوج من رجل عنين يجب أن يسمح لها ، إذا وافق زوجها ، بأن تضاجع رجلاً آخر لكي تنجب منه طفلاً ويجب أن يسمح لها بأن تدعى أن الطفل هو ابن زوجها وإذا أبي الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطلق منه . ومع ذلك فإن الطلاق مأساة لا نهاية لها ، ولعل تعدد الزوجات خير منه (٥٣) . ثم أضاف لوثر التحدي إلى الهرطقة وانتهى إلى أن يقول « إنى أسمع إشاعة تقول إن نشرات بابوية جديدة ولعنات بابوية ترسل ضدي تتضمن حثاً على سحب أقوالى » (٥٤) . . .

وإذا كان هذا حقاً فإني أود أن يكون هذا الكتاب جزءاً من الإنكار الذي أقوم به .

وكان حربياً بمثل هذه السخرية أن تزيع ميلتيز عن حلمه بالمهادنة . ومع ذلك فإنه سعى مرة أخرى إلى لوثر (١١ أكتوبر سنة ١٥٢٠) وأقنعه بأن يرسل للبابا ليو خطاباً يتصل فيه من أى قصد في مهاجمته شخصياً ويعرض القضية باعتدال للإصلاح وسوف يحاول ميلتيز من جانبه أن يكفل له إلغاء النشرة فما كان من لوثر البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً « والفلاح ابن الفلاح » كما كان يدعو نفسه مفاخرأ ، إلا أن كتب خطاباً لم يضمته اعتذاراً بل نصيحة أبوية تقريباً إلى خليفة القديس بطرس وسليل آل مديتشي البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً . وأعرب عن احترامه للبابا كفرد ولكنه استنكر في غير هوادة فساد البابوية في الماضي والمحكمة البابوية في الحاضر : « إن ما تتمتع به من سمعة وشهرة في حياتك الطاهرة الذيل أمر معروف تماماً وأسمى من أن يكون مجالاً للهجوم . . . ولكن سدتك البابوية التي تسمى المحكمة الرومانية والتي لا يمكنك أنت أو أى إنسان أن تنكر أنها أكثر فساداً مما كان عليه أهل بابل أو سدوم والتي بقدر ما أستطيع أن أرى ، تتسم بنخب غوى لا أمل فيه قبيح الصيت - فهذه السدة أنا أزدرها . . . ولقد أصبحت الكنيسة الرومانية أكبر وكر داعر للصوص وأعظم المواخير التي يندى لها الجبين ومملكة الإثم والموت والجحيم . . . ولطالما ساءنى يا صاحب المقام السامى ليو إنك تنصب بابا في هذه العهود لأنك خالق بأيام خير منها . . .

« ولذلك أرجو » يا عزيزى ليو ألا تستمع إلى تلك الأقوال المعسولة التي لا تجعلك بشراً سوياً وترفعك إلى مصاف أنصاف الآلهة لكي تأمر . . . بما تشاء فأنت خادم الإجراء وبعد كل الرجال الآخرين في مركز خطير يرثى له . فلا يخدمك هؤلاء الذين يدعون أنك سيد العالم . . . الذين

يهرقون بأن لك سلطاناً على السماء والجحيم والمطهر . . . إن الذين يعلون قدرك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون . والذين ينسبون إليك الحق في تفسير الكتاب المقدس يخطئون لأنهم ينشدون تحت ستار اسمك أن يرسوا قواعد خبثهم في الكنيسة ، ومما يؤسف له أن الشيطان من خلالهم قد أحرز نجاحاً تحت حكم أسلافك . والحلاصة لا تصدق أحداً يعلى من قدرك ، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك (٥٥) .

وأرسل لوثر مع هذا الخطاب ثالث بياناته وأطلق عليه اسم « عجالة في الحرية المسيحية » (نوفمبر عام ١٥٢٠) وشعر بأنه « ما لم أكن مخدوعاً فإنها الحياة المسيحية بأسرها في شكل موجز » (٥٦) . وعبر هنا باعتدال يخلو من الرقة عن مذهبه الأساسي - أن ذلك الإيمان وحده لا الأعمال الصالحة هي التي تخلق المسيحي الصادق وتخلصه من عذاب النار . لأن الإيمان بالمسيح هو الذي يجعل الإنسان صالحاً وأعماله الصالحة تترتب على ذلك الإيمان . « فالشجرة تحمل الثمار أما الثمرة فلا تحمل الشجرة » (٥٧) . والإنسان القوي الإيمان بالله والذي يكفر عن تضحية المسيح لا ينعم بحرية الإرادة فحسب ولكن بنعم بأعمق الحريات كلها : التحرر من نداء الجسد ومن كل القوى الشريرة ومن لعنة الأبدية بل ومن القانون لأن الإنسان الذي تتدفق فضيلته تلقائياً من إيمانه في غنى عن الأوامر بالاستقامة (٥٨) . ومع ذلك فإن هذا الإنسان الحر يجب أن يكون خادماً لكل الناس لأنه لن يكون سعيداً إذا عجز عن عمل كل ما في وسعه لإنقاذ الآخرين كما ينقذ نفسه . إنه بالإيمان يرتبط بالله وبالحب مع جاره . وكل مسيحي مؤمن يعد قسماً يقوم بالخدمات الدينية .

وبينما كان لوثر يكتب تلك الرسائل التاريخية كان إليك والياندر يواجهان الثورة الدينية مباشرة وأحرزا نجاحاً في إعلان بشرة الحرمان من غفران الكنيسة في مايسين ومرسيدبورج وبراندنبورج ، أما في نورمبرج فانهما

لم يستخلصا إلا الاعتذارات من بيركهايمر وشينجلر وفي ماينز طرد كبير أساقفتها ألبرخت من بلاطه هوتن بعد أن هادن فترة الإصلاح الديني وسجن طابعي كتب هوتن وصدورت كتب لوثر في أنجولستادت وأحرقت في ماينز ولوفان وكولونيا ، ولكن في ليبتسيج وتورجاو وديبيلين اطخت النشرة المعلقة بالقنذاة ومزقت وفي أرفورت انضم كثير من الأساتذة ورجال الدين في رفض عام للاعتراف بالنشرة ، وألقى الطلبة بكل ما وصل إلى أيديهم من النسخ في النهر ، وأخيراً فر إيكن من المسرح الذي شهد انتصاراته قبل ذلك بعام (٥٩) .

وندد لوثر بالإعلان في سلسلة من الكتيبات التي تقطر مرارة وفي إحدى هذه الكتيبات أعلن موافقته الكاملة على آراء هس ، وحوالي ٣١ من أغسطس عام ١٥٢٠ استغاث بالإمبراطور طالباً الحماية مثل « برغوث واحد يجرؤ على مخاطبة ملك الملوك » وفي السابع عشر من نوفمبر نشر استغاثته رسمية من البابا بمجلس للكنيسة . وعند ما علم أن مبعوثي البابا يحرقون كتبه قرر أن يرد عليهم بالمثل ؛ فأصدر نداء إلى الشباب التي المثقف في فيتنبرج لكي يتجمع خارج بوابة « الستر » في المدينة صباح يوم ١٠ ديسمبر ، وهناك أمسك بيديه نشرة البابا وقذف بها في النار مع بعض المراسيم الكنسية ومجلدات من لاهوت أصحاب الفلسفة الكلامية ، ورمز في عمل واحد إلى رفضه للقانون الكنسي وفلسفة الاكوييني وكل سلطة للكنيسة تأخذ بسياسة القمع . وجمع الطلبة كتباً أخرى من نفس النوع في ابتهاج وألقوا بها في النار لتظل مشتعلة حتى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم . وفي الحادي عشر من ديسمبر أعلن لوثر أنه لا يمكن لإنسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية (٦٠) وهكذا حرم الراهب البابا من غفران الكنيسة .

٥ - المجلس النيابي في ورمس

ولقد ظهر على المسرح وقتذاك ممثل ثالث قام منذ تلك اللحظة بدور كبير استمر ثلاثين عاماً وذلك في الصراع بين اللاهوت والحكومات .
ولسوف يفرض نفسه على سردنا التاريخي في اثني عشر فصلاً أو يزيد .
واستهل الرجل ، الذي قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، سيرته بميراث ملكي وإن يكن مدنساً ، فجده من جهة أبيه الإمبراطور ماكسميليان وجدته ماري البورغندية ابنة شارل الحسور ، وجده من جهة أمه فرديناند وجدته إيزابلا ، أما أبوه فهو فيليب الجميل ملك قشتالة الذي ارتقى العرش في السادسة والعشرين ومات وهو في الثامنة والعشرين من عمره ، وأمه هي جوانا لالوكا التي جنت عندما بلغ شارل السادسة ، وعاشت حتى بلغ الخامسة والخمسين من عمره . وقد ولد في غنت (٢٤ فبراير سنة ١٥٠٠) ونشأ في بروكسل وظل فلمنكي اللسان والطبع إلى أن اعتزل الحكم نهائياً في إسبانيا . ولم تغفر له هذا إسبانيا ولا ألمانيا ولكنه بمرور الوقت تعلم الحديث بالألمانية والأسبانية والإيطالية والفرنسية ، وكان يستطيع أن يلتزم الصمت في اللغات الخمس . وحاول أدريان الأوترختي أن يعلمه الفلسفة ولكنه لم يصب نجاحاً يذكر ، وتلقى على يدي هذا الأسقف الصالح تأديباً صارماً ، يتفق مع عقيدة المستمسكين بأهداب الدين ، وربما تشرب مع ذلك في منتصف العمر نزعة شك خفية من مستشاريه ورجال بلاطه الفلمنكيين الذين شاع بينهم قلدركتفه الرضا من عدم المبالاة بالعقيدة على طريقة أرازموس .

ولكم شكاً بعض القساوسة من إطلاق حرية الرأي الديني بين حاشية شارل (٦١) . واعتصم بالتقوى ولكنه عكف على دراسة فن الحرب . وقرأ كومينيس وتعلم في مرحلة الطفولة حيل الدبلوماسية ، وعدم تمسك الدول بالأخلاق . وعند وفاة أبيه (١٥٠٦) ورث الفلاندرز وهولنده وكونتيه فرانكس وادعاء الحق في حكم برغيا . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره نهض

بمسئولية الحكم ووقف نفسه على الإدارة ، وفي السادسة عشرة أصبح شارل الأول ملك إسبانيا وصقلية وساردينيا ونابلي وأمريكا الإسبانية ، وفي التاسعة عشرة طمح إلى أن يصبح إمبراطوراً ، وكان فرانسيس الأول ملك فرنسا يصبو إلى الشرف نفسه في ذلك الوقت أيضاً ، وسر الأمراء المختارون الإمبراطوريون بدمائة أخلاقه إلا أن شارل أنفق ٨٥٠,٠٠٠ فلورين ليكسب هذه المباراة واستطاع أن يفوز بها (١٥١٩) . واضطر في سبيل جمع هذا المبلغ الطائل إلى أن يقترض مبلغ ٥٤٣,٠٠٠ فلورين من آل فوجر ، وهكذا أصبح شارل (٦٢) منذ ذلك صديقاً لآل فوجر ، كما أصبح آل فوجر أوفياء له ، ولكنه لما تأخر في سداد القرض أرسل له جاكوب فوجر الثاني مذكرة حادة اللهجة : من المعروف جيداً أن جلالتهكم ما كنتم تستطيعون الحصول على الشرف الإمبراطوري لولا مساعدتي وفي وسعي أن أثبت ذلك بالبيانات المسجلة من جميع المندوبين ولم أنشد في هذا منفعتي الخاصة . . . وإلى أطلب بكل احترام أن تفضلوا . . . بإصدار الأمر بإعادة المبلغ الذي كنت قد دفعته هو والفائدة دون تأخير (٦٣) .

وواجه شارل جانباً من التزامه بمنح آل فوجر حق الاستيلاء على رسوم الجمارك في ميناء أنتورب (٦٤) ، وعند ما أوشك آل فوجر على الخراب نتيجة لغزوات الأتراك لهنغاريا هب لنجدتهم بمنحهم حق الإشراف على المناجم الإسبانية (٦٥) ، ومنذ ذلك الوقت صار مفتاح كثير من التاريخ السياسي « فتش عن المصرفي » .

وهذا الفتى الذي وجد نفسه في التاسعة عشرة من عمره زعيماً بالاسم لكل وسط أوروبا وغربها ما عدا إنجلترا وفرنسا والبرتغال والولايات البابوية قد يميز بالصحة الضعيفة التي ضاعفت من تقلباته . . . كان شاحب الوجه قصير القامة ، تبدو عليه البساطة ، له أنف حاد أقي ، وذقن يرم على التحدي ، نخافت الصوت رصين السمات ، وكان رقيق القلب لطيف، المعشر بطبعه ، ولكنه سرعان ما تعلم أن الحاكم يجب أن يحافظ

على المسافة والاتجاه ، وأن السمكوت نصف الدبلوماسية ، وأن روح الفكاهة الصريحة تكدر عبير جلال الملك . وعند ما التقى به ألياندر عام ١٥٢٠ كتب إلى ليو العاشر يقول : « في رأي أن هذا الأمير قد وهب . . . فطنة تفوق عمره وأنه يخفى في رأسه أكثر مما يبدو على وجهه » (٦٦) . ولم يكن متوقداً الذكاء إلا في الحكم على الرجال - مما يكسبه نصف المعركة ، وكان يرتفع إلى مستوى الأزمات التي تواجهه بالجهد الجهد - بيد أن ذلك كان يتكلف الكثير حقاً . ثم إن استمرار وهنه في الجسم والعقل . . . يفتقر إلى أن يتأزم الموقف ويضطره إلى اتخاذ قرار حاسم وعندئذ يواجهه بعزم مفاجيء وإصرار يتسم بالدهاء . كانت الحكمة تواتيه لا بالسليقة ولكن بالتجارب .

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٢٠ انطلق شارل الخامس ، ولم يكن أكبر سناً من القرن الذي وجد فيه ، إلى مدينة آخن بلدة شارلمان ليتوج فيها ، وانطلق الأمير المختار فردريك لحضور الحفل ولكنه اضطر إلى التوقف في كولونيا بسبب داء النقرس ، وهناك قدم له ألياندر التماساً آخر للقبض على لوثر ، فما كان من فردريك إلا أن استدعى أرازموس وطلب منه النصيحة ، فدافع أرازموس عن لوثر وأشار إلى أن هناك عيوباً صارخة في الكنيسة ، وقال إن الجهود التي تبذل لإصلاحها يجب ألا تقمع ، وعندما سأله فردريك ما هي الأخطاء الرئيسية التي ارتكبها لوثر أجاب : « خطأين : هاجم البابا في تاجه ، والرهبان في بطونهم » (٦٧) . وناقض صحة النشرة البابوية ، وقال إنه يرى أنها لا تتفق مع ما عرف به ليو العاشر من رقة الحاشية (٦٨) وأبلغ فردريك القاصد الرسولي أن لوثر قدم التماساً وأن لوثر يجب أن يظل طليقاً إلى أن يبت في هذا الالتماس .

ورد الإمبراطور بالجواب نفسه . . . كان قد عهد الأمراء المختارين كشرط لانتخابه ، ألا يدان ألماني دون محاكمة عادلة في ألمانيا . ومهما يكن من أمر فإن مكانته جعلت - مذهب المحافظة على الدين لا مندوحة عنه .

وكانت أسبانيا تعترف به ملكاً عليها اسماً أكثر من اعتراف ألمانيا به
إمبراطوراً عليها وهي بلد ينفر من نظام الحكم المركزي ، ولم يعد رجال الدين
في اسبانيا يحتملون طويلاً ملكاً يترفق بالهرطقة . يضاف إلى ذلك أن الحرب
مع فرنسا كانت تلوح في الأفق ولسوف يدور القتال حول ميلان باعتبارها
مغزماً ، ومن هنا كان تأييد البابا يساوى جنشاً بأسره . . . كانت الإمبراطورية
الرومانية المقدسة مرتبطة بالبابوية بمائة وشيعة ، وليس من شك في أن
مقروط إحداهما سوف يلحق بالأخرى ضرراً بليغاً فكيف يستطيع الإمبراطور
أن يحكم مملكته المتناثرة المتباينة دون أن يلقي العون من الكنيسة في النظام
الأخلاقي والإدارة السياسية ؟ كان كبار وزرائه إلى ذلك الوقت من
رجال الدين كما أنه كان في حاجة إلى أموال الكنيسة ونفوذها لحماية
هنغاريا من الأتراك .

كان شارل يقرب في ذهنه هذه المشاكل على اختلافها ، وكانت تشغله
أكثر من مسألة راهب مشاكس ، فدعا مجلساً نيابياً إمبراطورياً لعقد اجتماع
في ورمس ، ولما اجتمع هناك كبار النبلاء ورجال الدين ممثلو المدن الحرة
(٢٧ يناير عام ١٥٢١) إذا بلوثر هو الموضوع الرئيسي في المناقشة وليس
من شك في أن القوى التي كانت تعد الإصلاح الديني خلال قرون بلغت
أوجها في مسرح من أعظم المسارح الدرامية في التاريخ الأوروبي . ويقول
مؤرخ كاثوليكي : « لقد امتدحت الطائفة العظمى لنبلاء الألمان محاولات لوثر
وأيدتها » (٦٩) . بل إن الياندر نفسه كتب تقريراً قال فيه : « إن ألمانيا بأسرها
ترفع السلاح ضد روما والعالم كله يصرخ مطالباً بمجلس يجتمع على الأرض
الألمانية . ولقد أصبحت النشرات البابوية التي تنص على الحرمان من غفران
الكنيسة تثير السخرية وامتنع عدد كبير من الناس عن تناول القربان المقدس
للتكفير . . . أما مارتن فإنه يصور وفوق رأسه هالة ويقبل الناس هذه
الصورة . ولقد بيعت منها مقادير هائلة حتى أني عجزت عن الحصول على

صورة واحدة . . . وأنا لا أستطيع أن أخرج إلى الطرقات خشية أن يرفع الألمان سيوفهم في وجهي ويصرون بأسنانهم غضباً عند رؤيتي . وإني لأرجو من البابا أن يمنحني صدك غفران كامل وأن يرعى إخوتي وأخواتي إذا أصابني مكروه» (٧٠) .

وهبت عاصفة من الكتيبات المناهضة للبابوية زادت من الإثارة وقال ألياندر في أسى أن عربية لا تسع كل هذه المقالات البديثة . وأصدر هوتن ، من قلعة سييكنجن في ايرنبورج على بعد أميال قليلة من ورمس ، نشرة تضمنت هجوماً محموداً ضد رجال الدين الألمان : « اذهبوا أيها الخنازير القذرة . . . ارحلوا عن الهيكل المقدس أيها التجار المتبدلون ولا تلمسوا المذابح بأيديكم الدنسة . . . كيف تجروئون على إنفاق المال المخصص لأغراض دينية في مظاهر الترف وفي التبدل والأبهة بينما الناس الشرفاء يتضورون جوعاً ؟ لقد فاضت الكأس . ألا ترون أن نسمة الحرية قد بدأت تهب ؟ » (٧١) وكان تعاطف الناس مع لوثر قوياً إلى حد أن كاهن الاعتراف عند الإمبراطور الراهب الفرنسيسكاني جان جلابيون اختلى بجورج سبالاتان راعي كنيسة فردريك في محاولة للتوفيق بين الطرفين . وأعرب عن عطفه الكبير على كتابات لوثر الأولى ، ولكن « الأسر البابلي جعله يشعر » كما لو كان قد جلد بالسياط وضرب بمقبض السيف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . . . وأشار إلى أنه لا يمكن أن يقوم أساس سليم لعقيدة دينية تعتمد على الكتاب المقدس لأن « الإنجيل يشبه شمعاً طرياً يستطيع كل إنسان أن يفتله أو يمطه على هواه » . وسلم بالحاجة الملحة إلى إصلاح كهنوتي ، والحق أنه كان قد حذر إمبراطوره التائب من أن « الله سوف يعاقبه هو وكل الأمراء إذا لم يحرروا الكنيسة من مثل هذه المساويء التي تنطوي على الغرور » . ووعده بأن شارل سوف ينجز الإصلاحات الكبرى خلال خمس سنوات . وحتى ذلك الوقت وبعد كل تلك الثورات اللوثرية المرددة كان يعتقد أن السلام ممكن إذا تراجع لوثر عما قاله (٧٢) . ولكن لوثر أبى عنده ما أخطر بذلك في فيتنبرج . . .

وفي الثالث من مارس قدم ألياندر إلى المجلس النيابي (الدايت) اقتراحاً بالإدانة الفورية للوثر فاحتج المجلس بأن الراهب يجب ألا يدان دون سماع أقواله ، وعلى ذلك وجه شارل دعوة إلى لوثر للحضور إلى ورمس ليؤدى الشهادة عن تعاليمه وكتبه . وكتب له يقول : « لا حاجة بك إلى الخوف من التعرض لأى عنف أو إزعاج لأننا أعطيناك جواز الأمان » (٧٣) . وتوسل أصدقاء لوثر إليه ألا يذهب وذكره بجواز الأمان الذى كان الإمبراطور سيجموند قد أعطاه لهس وأرسل أدريان الأوترختي ، وكان وقتذاك كاردينالاً لتورتوزا ، ثم نصب بابا بعد قليل ، التماساً إلى الإمبراطور تلميذه السابق طلب فيه أن يتجاهل جواز الأمان وأن يقبض على لوثر ويرسله إلى روما ، وفي اليوم التالى من أبريل غادر لوثر مدينة فيتنبرج ، وعند ما وصل إلى أرفورت حياه حشد كبير من بينهم أربعون أستاذاً من الجامعة باعتباره بطلاً . وعند ما اقترب من ورمس سارع سبالاتان وأرسل له تحذيراً ألا يدخل المدينة وأن يقفل راجعاً على جناح السرعة إلى فيتنبرج . فرد عليه لوثر بقوله : « على الرغم من أن فى ورمس كثيراً من الشياطين بقدر عدد طوب القرميد على الأسطح فسوف أذهب إلى هناك » (٧٤) . وانطلقت عصابة من الفرسان الى لقائه ومرافقته إلى المدينة (١٦ أبريل) . وانتشر نبأ وصوله فى الطرقات فتجمع ٢٠٠٠ نسمة حول عربته ، وقال ألياندر « يخيل إلى أن العالم بأسره أقبل لرؤيته بل وحتى شارل حجب فى الظلال .

وفي يوم ١٧ أبريل مثل لوثر فى رداء الرهبان أمام المجلس النيابي (الدايت) الإمبراطور وستة أمراء مختارون محكمة رهيبة من الأمراء والنبلاء والبطاركة وأوساط الناس وجيروم ألياندر مسلحاً بسلطة بابوية ووثائق رسمية وفصاحة قضائية ورضت على منضدة قريبة من لوثر مجموعة من الكتب . وتصدى جوهان ايك - ولم يكن صاحب مناظرة لبيتسيج بل موظفاً عند كبير أساقفة تريير - وسأله هل هذه الكتب من تأليفه وهل هو

على استعداد لإنكار كل هذه الهرطقة التي تضمها ؟ وممرت لحظة على لوثر وهو واقف أمام هذا الجمع الذي يمثل هيئة الإمبراطورية والسلطة النيابية وجمال الكنيسة ، فخائته شجاعته وأجاب بصوت خافت حيي أن الكتب من تأليفه ، وأما بالنسبة للسؤال الثاني فإنه التمس منحه مهلة للتفكير فأمله شارل يوماً . وعند ما عاد إلى مسكنه تلقى رسالة من هوتن يناشده فيها الثبات في موقفه ، وأقبل كثير من أعضاء المجلس النيابي لزيارته زيارة خاصة لتشجيعه ويبدو أن الكثيرين كانوا يحسون بأن جوابه النهائي سوف يكون نقطة تحول في التاريخ .

وفي يوم ١٨ إبريل واجه المجلس النيابي بثقة كاملة ، وكانت قاعة المجلس تموج بالحاضرين إلى حد أن الأمراء المختارين وجدوا صعوبة بالغة في الوصول إلى مقاعدهم ووقف معظم الحضور . وسأله ايلك عما إذا كان على استعداد لإنكار المؤلفات التي كان قد كتبها كلياً أو جزئياً ، فأجاب بأن تلك الأجزاء التي تناولت المفاسد الكهنوتية صحيحة بإجماع الآراء فقاطعه الإمبراطور بصوت جهورى دوى في القاعة « لا » . ولكن لوثر استأنف حديثه وهاجم شارل نفسه فقال : « إذا أنكرت ما قلت في هذا الوقت فإني أفتح الباب لمزيد من الطغيان والزندقة وسوف يصبح هذا كله أسوأ ما يكون إذا ظهر أنى فعلت هذا بناء على طلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . أما بالنسبة للفقرات العقائدية في كتبه فقد وافق على أن يسحب أى فقرة منها إذا ثبت أنها تخالف ما جاء في الكتاب المقدس ، فأبدى ايلك على هذا باللاتينية اعتراضاً عبر تماماً عن وجهة نظر الكنيسة : « يا مارتن إن التمسك بسمع ما جاء في الكتاب المقدس هو نفس ما كان يتذرع به دائماً الهرطقة انك لا تفعل شيئاً سوى أن تكرر الأخطاء التي ارتكبتها ويكليف وهس . . . كيف تدعى أنك الوحيد الذى يفهم معنى آيات الكتاب المقدس ؟ وهل تضع حكمتك فوق حكم كثير من المشهورين وتزعم أنك تعرف أكثر مما يعرفون

جميعاً ؟ ليس لك الحق في أن تدخل في المناقشة العقيدة الأرثوذكسية المقدسة التي لقنها المسيح المشرع الكامل والتي نشرها الرسل في أرجاء العالم ، والتي ختمت بدماء الشهداء وأكدها المجالس المقدسة وعرفتها الكنيسة . . . والتي يحرم علينا البابا والإمبراطور مناقشتها خوفاً ألا ينتهي النقاش . إني أسالك يا مارتن . أجب بأمانة وصدق بغير مواربة - هل تنكر أو لا تنكر كتبك والأخطاء التي تحتويها ؟ « (٧٥) فرد لوثر بجوابه التاريخي بالألمانية : ما دام بجلالتكم وسيادتكم تريدون جواباً بسيطاً فيني سأجيب بغير مواربة . . . ما لم تدينني آية في الكتاب المقدس أو الحججة الواضحة (وأنا لا أقبل سلطة البابوات والمجالس الدينية لأن كلا منهما يناقض الآخر) فإن ضميري أسر لكلمة الله . وأنا لا أستطيع أن أسحب شيئاً من أقوالى . ولن أفعل هذا ، لأن مخالفة ضميري ليس من الصواب والأمن في شيء . أسأل الله العون . آمين « (٧٦) (*)

فواجهه إليك بأنه لا يمكن إثبات أى خطأ في المراسيم العقائدية التي أصدرتها المجالس ، فرد عليه لوثر بأنه على استعداد لإثبات مثل هذه الأخطاء ، ولكن الإمبراطور اعترض قائلاً بلهجة قاطعة : « هذا يكفي . ما دام أنه أنكر المجالس فإننا لا نود سماع كلمة أخرى » (٧٨) . وعاد لوثر إلى مسكنه وقد أنهكه الصراع ولكنه كان واثقاً من أنه قدم شهادة طيبة فيما أسماه كارلايل « أعظم لحظة في التاريخ الحديث الإنسانية » (٧٩) .

كان الإمبراطور لا يقل رجفة عن الراهب . ولما كانت تجرى في عروقه الدماء الملكية ولأنه ألف السلطة فإنه اعتقد أن من الأمور التي لا تحتاج إلى برهان أن حق كل فرد في تفسير الكتاب المقدس وقبول المراسيم المدنية أو الدينية أو رفضها طبقاً لهواه الشخصي وما يمليه عليه ضميره سوف

(*) ليس في رسمنا أن تؤكد صحة الكلمات المشهورة التي حفرت على النصب التذكاري الفخيم الذي أقيم تخليداً للوثر في ورمس - « هنا أقف ولا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر » . ولم ترد الكلمات في النسخة المطابقة لرد لوثر كما هو مثبت في سجلات المجلس النهائي (الدهات) لأول مرة في أول رواية طبعت لخطابه (٧٧) .

يعجل بتقويض أسس النظام الاجتماعي لأن هذا كما بدا له قائم على قانون أخلاقي يستمد بدوره قوته من الأحكام الخارقة للعقيدة الدينية .

وفي اليوم التاسع عشر من إبريل دعا كبار الأمراء إلى مؤتمر عقده في حجراته الخاصة وقدم لهم بياناً عن الولاء والنية مكتوباً بالفرنسية ويبدو أنه كتبه بنفسه : « إنى أنحدر من صلب سلسلة طويلة من الأباطرة المسيحيين لهذه الأمة الألمانية النبيلة ومن ملوك أسبانيا الكاثوليكين ومن أرشيدوقات النمسا ودوقات برغنديا . وكانوا جميعاً أوفياء حتى الموت لكنيسة روما ، ولقد دافعوا عن العقيدة الكاثوليكية ومجد الرب وقد عازمت على أن أحذو حذوهم . إن راهباً واحداً يسير ضد المسيحية بأسرها كما عرفت منذ ألف عام لا بد أن يكون على خطأ مبين ، ومن ثم فإنى قررت أن أخاطر ببلادي وأصدقائى وتسمى ودمى وحياتى وروحي وبعد أن استمعت أمس إلى دفاع لوثر المتشبهت برأيه فإنى آسف لأنى تأخرت طويلاً فى اتخاذ الإجراءات ضده . وضد تعاليمه الزائفة . لن يكون لى معه شأن آخر . وفى وسعه أن يعود فقد منحته جواز الأمان ولكن عليه أن يمتنع عن الوعظ أو إحداث أية فتنة ولسوف أحاكمه على أنه هرطيق سيئ السمعة وإنى أطلب منكم أن تدلوا بأرائكم كما وعدتمونى » (٨٠) .

فوافق أربعة من الأمراء المختارين على هذا الإجراء وامتنع فردريك صاحب ساكسونيا ولودفيج صاحب بالاتينيت عن إبداء رأيهما - وفى تلك الليلة - ١٩ إبريل ثبت أشخاص مجهولون على باب قاعة المدينة وفى أماكن أخرى من ورمس إعلاناً كبيراً يحمل حذاء الفلاح رمز الثورة الاجتماعية . وأفزع هذا بعض رجال الدين وألحوا شخصياً على لوثر بإحلال الوثام محل الخصام مع الكنيسة ، ولكنه أيد تصريحه للمجلس النيابى . وفى السادس والعشرين من إبريل بدأ رحلة العودة إلى فيتنبرج وأرسل ليو أوامر تقضى باحترام جواز الأمان (٨١) ، ومع ذلك فإن الأمير المختار فردريك نحشى أن يحاول رجال الشرطة الإمبراطورية القبض على لوثر بعد انتهاء مفعول جواز الأمان

يوم ٦ مايو ، فرتب - بعد أن رضى لوثر بهذا على مضض - كميناً له في طريق عودته إلى وطنه ، كما لو كان من عمل قطاع الطرق وأخذه خفية إلى قلعة فارتبورج .

وفي السادس من مايو قدم الإمبراطور للمجلس النيابي ، وكان عدد أعضائه قد انخفض بسبب رحيل الكثيرين ، المسودة التي أعدها ألياندر عن منشور ورمس وفيه يتهم لوثر بأنه « دنس الزواج واستخف بالاعتراف وأنكر وجود جسد الرب ودمه . ثم إنه يجعل القربان المقدس يتوقف على إيمان من يتناوله . إنه وثني في إنكاره الإرادة الحرة . إن هذا الشيطان الذي يرتدى مسوح راهب قد جمع الأخطاء القديمة في بركة آسنة منتنة ، بل وابتدع أخطاء جديدة أنه ينكر سلطة الروثساء ، ويشجع العلمانيين على أن يغسلوا أيديهم من دم رجال الدين . وتعاليمه تدعو إلى العصيان والانقسام والحرب والقتل والسرقة والحرق عمداً وإلى انهيار العالم المسيحي وهو يحيا حياة بهيمية . لقد أحرق المراسيم البابوية ، إنه يحتقر الحرمان من غفران الكنيسة والسيوف على السواء . وهو يلحق بالسلطة المدنية من الأذى أكثر مما يلحق بالسلطة الكهنوتية للكتاب المقدس الذي يفسره على هواه . لقد أمهلناه واحداً وعشرين يوماً من ١٥ أبريل وعند ما تنقضى هذه المهلة فليس لأحد أن يؤويه ولسوف يدان أتباعه أيضاً . أما كتبه فيجب أن تمحى من ذاكرة الإنسان » (٨٢).

وبعد يومين من تقديم هذا المنشور حول ليو العاشر تأييده السياسي من فرانسيس الأول إلى شارل الخامس . ووافق المجلس النيابي (اللدايت) المحرد من السلطة على المنشور ، وفي اليوم السادس والعشرين من مايو أصدره شارل رسمياً فحمد ألياندر الرب وأمر بإحراق كتب لوثر أينما وجدت .

٦ - الراديكاليون

كانت فارتبورج في حد ذاتها قطعة من العذاب الكئيب ، فقد كانت القلعة القديمة تجثم على قمة جبل على مسيرة ميل من إيزيناخ ، وكانت مخفية

عن أنظار العالم وعن أنظار الإمبراطور أيضاً . وأقام لوثر هناك مدة تقرب من عشرة شهور (٤ مايو سنة ١٥٢١ إلى ٢٩ فبراير سنة ١٥٢٢) في غرفة مظلمة مجهزة بفراش ومنضدة وموقد وجذع شجرة يستخدم كقعد . وكان يحرس القلعة بضعة جنود ، ويعنى بالأراضي حارس ، ويقوم بخدمة لوثر صبيان يعملان وصيفين له . ورأى أن من الأوفق ، ولعل هذا كان من قبيل التنكر المحلى ، أن يخلع مسوح الرهبان ، ولبس رداء فارس ، وأطلق لحيته ، وأصبح وقتذاك يعرف باسم جورج النبيل الألماني الشاب ، وخرج للصيد ولكنه لم يستطع قتل الأرانب في الوقت الذي لا يزال فيه كثير من المناهضين للمسيحية بنجوة من القتل . وأسقمه الكسل والأرق وكثرة الطعام وشرب البيرة وأصيب بالبدانة وأخذ يسب ويلعن كما يفعل أى نبيل ألماني شاب وكتب يقول : « ليتنى أحرق على جمرات ملتهبة فهذا خير لى من أن أتعفن هنا بوى أن أخوض نهار المعركة » (٨٣) . ولكن وزير فردريك نصحه بأن يظل في مخبئه لمدة عام ريثما تهدأ حماسة شارل . ومهما يكن من أمر فإن شارل لم يبذل أى جهد للعثور عليه أو لاعتقاله .

وراودت الشكوك والأوهام لوثر في خلوته الفكرية وتساءل أين يمكن أن يكون على حق وأن يكون مثل هؤلاء الأخبار على ضلال ؟ وهل كان من الحكمة أن يقوض دعائم عقيدة راسخة ؟ وهل مبدأ الاجتهاد الشخصى نذير بنشوب الثورة والقضاء على القانون ؟ إذا كنا نصدق القصة التى رواها فى أخريات أيامه فإن أصواتاً غريبة كانت تزعجه أصواتاً لم يستطع تفسيرها إلا بأنها من صنع الشياطين وأكد أنه رأى الشيطان فى مناسبات عديدة وقرر أن الشيطان رجمه يوماً بالبحوز (٨٤) . وتذهب أسطورة مشهورة إلى أن لوثر قذفه يوماً بزجاجة حبر ولكنها أخطأته (٨٥) . وكان يسلى نفسه بكتابة خطابات ناصعة العبارة لأضدقائه وأعدائه وبتأليف عجالات فى علم اللاهوت وبتريجة العهد الجديد إلى الألمانية وقام فى إحدى المرات برحلة خاطفة إلى فيتنبرج ليزكى نار ثورة .

وكان تحديه لرجال الدين في ورمس وبقاؤه على قيد الحياة قد أدارا رؤوس أتباعه وجعلهم يتهون إعجاباً .

وفي أرفورت هاجم الطلبة وأصحاب الحرف والفلاحون أربعين بيتاً في الأبرشيات وهدموها وأتلفوا مكتبات ومحفوظات وقتلوا عالماً بالإنسانيات (يونيه ١٥٢١) ، وفي خريف ذلك العام المثير هجر الرهبان الأوغسطينيون في أرفورت الدير وبشروا بالعقيدة اللوثرية ونددوا بالكنيسة باعتبارها «أم الجحود والحيلاء والشح والترف والجحود والمطرقة» (٨٦) .

وحيثما ألف ميلانكتون في فيتنبرج كتابه *Loci Communes rerum theologiarum* (١٥٢١) - وهو أول عرض منهجي للاهوت البروتستانتي . طالب زميله الأستاذ كارلشتادت ، وكان قد أصبح وقتذاك رئيساً للشمامسة في كنيسة القلعة ، بأن يتلى القديس (إذا كان لا بد منه) باللغة الوطنية وأن يتناول القربان المقدس بالنبيذ والخبز دون أن يسبقه اعتراف أو صوم ، كما يجب أن ترفع الصور الدينية من الكنائس وأن يتزوج رجال الدين - من رهبان وقساوسة علمانيين - وأن ينجبوا . واتخذ كارلشتادت خطوة بالزواج من فتاة في ربيعها الخامس عشر (١٩ يناير سنة ١٥٢٢) وكان هو في الأربعين من عمره .

ولم يستنكر لوثر هذا الزواج ولكنه كتب يقول : «يا للسما ! أيقبل أهالي فيتنبرج أن يقدموا زوجات للرهبان ؟» (٨٧) ومع ذلك فإنه وجد في الفكرة ما يجذبه لأنه بعث إلى سبالاتان (٢١ نوفمبر سنة ١٥٢١) برسالة عن «عهود الرهبنة» دافع فيها عن نبلهم لهذه العهود . فتباطأ سبالاتان في نشره لأنه كان صريحاً بصورة تخالف التقاليد إذ كان يسلم بأن الغريزة الجنسية أمر طبيعي لا يمكن قمعها ويعلن أن عهود الرهبنة من غوايات الشيطان وأنها تضاعف الآثام ، وكان لا بد من مرور أربع سنوات قبل أن يتزوج لوثر نفسه إذ يبدو أن تقديره المتأخر للمرأة لم يلعب دوراً في افتتاح عهد الإصلاح الديني .

ومضت الثورة قدماً ففي اليوم الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٥٢١ ناول ميلانكتون القربان المقدس بكلا الطريقتين وهنا ظفر الأواكويستيون في بوهيميا بنصر جاءهم على مهل ، وتوقفت تلاوة القديس في دير لوثر يوم ٢٣ أكتوبر وخرج ثلاثة عشر راهباً من الدير يوم ١٢ نوفمبر وتقدموا للزواج ، وسرعان ما نزلت نصف أديرة ألمانيا على إثر خروج مماثل . وفي الثالث من ديسمبر دخل بعض الطلبة وسكان المدينة وهم مسلحون بالمدى كنيسة الأبرشية في فيتنبرج وطرّدوا القساوسة من المذابح ورجعوا بعض المصلين الذين كانوا يؤدون الصلاة أمام تمثال للعذراء . وفي الرابع من ديسمبر هدم أربعون طالباً مذابح دير الفرنسيسكان في فيتنبرج وفي اليوم نفسه زار لوثر ، وكان لا يزال متنكراً في زي نبيل ألماني شاب ، المدينة خفية وأقر زواج الرهبان ولكنه حذر رجال الدين والعلمانيين من الالتجاء إلى العنف وقال : « إن الإكراه ليس حقاً مطلقاً للجميع ولكنه يجب أن تمارسه السلطات الشرعية » (٨٨) . وفي اليوم التالي عاد إلى فارتبورج وبعد ذلك بقليل أرسل إلى سبالاتان للنشر كتاب : « تحذير » جاد لكل المسيحيين يحذرهم من العصيان والثورة فقد خشى إذا انتشرت الثورة الدينية بسرعة أو إذا أصبحت ثورة اجتماعية أن تنفر منها طبقة النبلاء وتقضى على نفسها ، غير أن صفحاته الأولى ذاتها كانت موضع انتقاد لأنها كانت تحض على العنف .

« يخيل إلى أن المحتمل أن يكون هناك خطر من الثورة ، وأن القساوسة والرهبان والأساقفة والطبقة الروحية بأسرها يمكن أن تتعرض للقتل أو الإبعاد إلى المنفى ما لم يصلحوا من أنفسهم تماماً وبصورة حادة ، ذلك لأن الرجل العادي كان يتذكر دائماً في فزع الضرر الذي حاق به في المال والجسد والروح وأصبح هدفاً للاستفزاز . لقد أمعنوا في اختباره إلى حد بعيد وحملوه ما لا طاقة له به بلا وازع من ضمير . ولم يكن في وسعه ، هذا ولم يشأ ، أن يتحمّله بعد ذلك واستطاع أن يتعلل بحجة قوية لكي يضرب

في كل اتجاه بمدقات الحنطة والمراوات كما يهدد الفلاحون بالقيام بهذا العمل . وأنا الآن لست مستاء أن أسمع أن رجال الدين قد وصلوا إلى مثل هذه الحالة من الخوف والقلق . ولعلمهم عادوا إلى رشدهم ونخفوا من استبدادهم الجنوني . . . بل إنى سوف أمضى إلى أبعد من هذا . لو أن لي عشرة أجساد واستطعت أن أنال من الله منة فيقتص منهم (أى من رجال الدين) بالوسائل الرفيعة (ذيل الثعلب غزير الشعر) التي تؤدى إلى الوفاة أو العصيان فإنى أهب أجسادى العشرة كلها للموت وأنا مغتبط « فى سبيل الفلاحين الفقراء » (٨٩) . وأردف يقول : « ومع ذلك فإن على الأفراد أن يتحاشوا الالتجاء إلى القوة فالله منتقم بجبار » .

« إن العصيان أمر غير معقول وهو بصفة عامة يضر الأبرياء أكثر مما يضر الآثمين . ولذلك فإن العصيان ليس من الصواب ، فى شيء ، مهما كان الدافع لأصحاب المصلحة فيه ، ذلك لأن الضرر الذى ينجم عنه يتجاوز دائماً قدر ما يتم من الإصلاح . . . وعند ما يتخلص السيد فلان (أى سيد) من قيده فإنه لا يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب ويضرب نخبط عشواء وعندئذ لا مناص من وقوع ظلم فظيع . . . إن عواطفى ستكون دائماً ، ولسوف تظل ، مع أولئك الذين يوجه التمرد ضدهم » (٩٠) .

واستمرت الثورة سلمية إلى حد ما . وفى يوم عيد الميلاد منذ عام ١٥٢١ أقام كارلستادت القديس باللغة الألمانية ، وهو يرتدى ملابس مدنية ودعا الجميع إلى تناول القربان المقدس بأخذ الخبز فى أيديهم والشرب من كأس القديس .

وفى ذلك الوقت تقريباً دعا جابريل تسفيابينج ، وهو أحد زعماء الطائفة الأوغسطينية ، مستمعيه إلى إحراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت . وفى السابع والعشرين من ديسمبر صب « الأنبياء » الذين وصلوا من تسفييكا الزيت على النار . وكانت هذه المدينة من أعظم المدن الصناعية

في ألمانيا ، وفيها عدد كبير من السكان يشتغلون بالنسيج في ظل بلدية
أعضاؤها من السادة التجار ، وشجعت حركة اجتماعية من العمال بأصداء
وذكريات تجربة التابورية التي قمعت وأثارت بوهيميا القريبة ، وأصبح
توماس مينتسر راعي كنيسة سانت كاترين للنساجين الناطق بلسانهم والمعبر
عن آمالهم وأصبح في الوقت نفسه نصيراً متحمساً للإصلاح الديني ، وعند ما
أدرك أن تعظيم لوثر للإنجيل باعتباره القاعدة الوحيدة للعقيدة قد أثار التساؤل
عمن يفسر النص أعان منتسر واثان من رفاقه - وهما نيكولاس ستورك
النساج وماركوس شتيفنر العالم - أنهم وحدهم مؤهلون ليكونوا مفسرين
للكتاب المقدس فقد أحسوا بأنهم يوحى إليهم من الروح القدس . وصرحوا
بأن هذه الروح المقدسة أمرتهم بأن يؤجلوا العماد إلى حين بلوغ سن الرشد
لأن القربان المقدس لا يكون له أثر إلا بالإيمان وهو أمر لا ينتظر من
الأطفال . وتنبأوا بأن العالم سيتعرض قريباً لخراب شامل يهلك فيه
كل الفجار - بما فيهم جميع القساوسة الجاملين بصفة خاصة ، ونبدأ بعد
ذلك على الأرض مملكة الرب الشيوعية^(٩١) وفي عام ١٥٢١ سحق تمرد قام به
النساجون وأقصى ثلاثة من « رسل تسفيكاو » وانطلق منتسر إلى براغ فأخرج
منها وحصل على أبرشية في « الشتدت في ساكسونيا » . وذهب ستورك
وشتيفنر إلى فيتنبرج وكان لهما أثر طيب على ميلانكتون وكارلشتادت أثناء
غياب لوثر .

وفي يوم ٦ يناير سنة ١٥٢٢ تبدد جمع الأوغسطينيين في فيتنبرج ،
وفي يوم ٢٢ يناير كان أنصار كارلشتادت قد بلغوا حظاً كبيراً من القوة
في المجلس البلدي إلى حد أنهم عملوا على إصدار مرسوم يقضى برفع كل
الصور من كنائس فيتنبرج ، وتحريم القداس إلا إذا أقيم بالشكل المبسط
الذي ينادى به كارلشتادت . وأدخل كارلشتادت صورة صلب المسيح
ضمن الصور الممنوعة وحرم مثل المسيحيين الأوائل عزف الموسيقى في

العبادات ، وقال : « إن ألحان الأرغن الفاجرة تدعو إلى التفكير في أمور الدنيا ، ففي الوقت الذي ينبغي فيه أن نتأمل في آلام المسيح التي تذكرنا بأسطورة بيراموس وتسيبيه **Byramus Thibes** . . . أبعادوا آلات الأرغن والأبواق والنأي إلى المسرح » (٩٢) .

وعند ما أرجأ مندوبو المجلس إزالة الصور قاد كارلشتادت أتباعه إلى داخل الكنائس ، ومزقت الصور والصلبان من فوق الجدران ورجم القساوسة الذين قاوموهم أيضاً بالأحجار (٩٣) . وقبل كارلشتادت رأى أنبياء تسييفاكاو - أن الله يخاطب الناس مباشرة كما يخاطبهم من خلال الأسفار المقدسة ، بل ويتكلم مع بسطاء العقول والقلوب أكثر مما يتكلم مع المتبحرين في اللغات والكتب - ولما كان هو نفسه علامة فإنه أعلن أن المدارس والدراسات تصرف الناس عن التقوى وأن المسيحيين حقاً سوف يعرضون عن كل الآداب والعلوم والفنون وعن التعليم ويصبحون فلاحين أميين أو حرفيين . وصرف أحد أتباعه وهو جورج مور طلبة المدرسة الذين يدرس لهم وحرص الآباء على أن يحافظوا على براءة أطفالهم من التأثير بالآداب والعلوم والفنون وترك عدد كبير من الطلاب الجامعة وانكفأوا إلى بيوتهم ليتعلموا حرفة يدوية وقالوا إنه لا حاجة بهم بعد هذا إلى الدراسة .

وعند ما سمع لوثر بهذا خشى أن يجد نقاده المحافظون ما يؤيد نبوءاتهم التي رددوها بأن رفضه التسليم بالسلطة الكنسية سوف يفصم عرى النظام الاجتماعي بأكمله . وتحدى لوثر أمر الإمبراطور وضرب عرض الحائط بالحماية التي أسبغها عليه الأمير المختار إذا سعى شارل للقبض عليه . فغادر قلعته وعاد إلى ارتداء مسوح الرهبان وحقق شعر راسه وسارع بالعودة إلى فيتنبرج ، وفي يوم ٩ مارس عام ١٥٢٢ بدأ سياسة مؤلفة من ثماني عضات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين إلى مراعاة النظام ، ذلك لأنه لم يكن يجذب وقتذاك أي التجاء إلى العنف ، ولم لا ؟ ألم يحزر الملايين من الناس من

عسف الكنيسة دون أن يرفع شيئاً أكثر من القلم ؟ وقال : « اتبعوني فأنا أول من اختصه الله بهذا الأمر والرجل الذي كشف له سبحانه وتعالى عن كلمته التي لا بد أن أبشركم بها . ولذلك أقول إنكم قد ارتكبتم خطأ بشروعكم في القيام بهذا العمل دون . . . أن تستشيروني أولاً (٩٤) . . . أمهلوني بعض الوقت . . . ولا تظنوا أن المظالم تمحى بتدمير الهدف الذي يساء التصرف فيه . إن الناس يمكن أن يضلوا بالنبيذ والنساء فهل نحرّم شرب النبيذ ونقضى على النساء ؟ لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم فهل ننزعها من السماء (٩٥) ؟ » إن الذين يريدون الاحتفاظ بالصور والتماثيل والصلبان وسماع الموسيقى أو ترتيل القداس يجب ألا يتدخل أحد في شؤونهم فهو نفسه قد أقر الصور الدينية (٩٦) . واتفق على ضرورة إقامة القداس وفقاً للشريعة التقليدية في إحدى كنائس فيتنبرج وعلى تناول القربان المقدس في كنيسة أخرى بالخبز وحده في المذبح العالي وبالخبز والنبيذ في مذبح جانبي . . . وقال لوثر إن الشكل لا يهم إلا قليلاً والمهم هو الروح التي يتناول بها القربان المقدس .

كان في أحسن حالاته وأعظم الناس استمساكاً بالمسيحية في تلك العظات الثمانية التي ألقاها في ثمانية أيام . ولقد خاطر بكل شيء لكي يتمكن من كسب فيتنبرج والعودة بها إلى حظيرة الاعتدال ، ونجح في ذلك ، وسعى أنبياء تسفيكا لتحويله إلى آرائهم وعرضوا أن يقرأوا أفكاره كدليل على أنهم يتلقون الوحي من الله فقبل التحدي وأجابوا بأنه يضمّر لأفكارهم عطفاً خفياً فرد جلاهم البصرى إلى الشيطان ، وأمرهم بمغادرة فيتنبرج وعند ما فصل كارلشتادت من وظائفه بقرار من مجلس مدينة أعيد تكوينه ، أخذ أبرشية في أورلامينديه ، وندد من فوق منبرها بلوثر ووصفه بأنه : « كاهن نهم . . . وبابا فيتنبرج الجديد » (٩٧) . ولقد سبق كارلشتاد جماعة الكويكر فتخلى عن كل الثياب الكهنوتية وارتدى معطفاً رمادياً بسيطاً

واستغنى عن الألقاب وطلب أن يدعى « الأخ أندرياس » ورفض قبول مرتب عن قيامه بالخدمة الدينية ، وعمل على كسب عيشه بالمحراث ورفض كل استخدام للعقاقير وفضل الصلاة على الدواء ودافع عن تعدد الزوجات باعتباره أمراً لم يحرمه الإنجيل ، وتبنى وجهة نظر رمزية محضة فيما يختص بالقربان المقدس ، وذهب لوثر بناء على طلب الأمير المختار إلى أورلامينديه ليعظ ضد كارلشتادت ولكنه أخرج من المدينة ورجم بالحجارة والطين (٩٨) . وعندما انهارت ثورة الفلاحين خشى كارلشتادت أن يقبض عليه بتهمة التحريض فسعى إلى مكان أمين مع لوثر وحصل عليه . وبعد جولة طويلة وجد الراديكالي ملجأه الأمين بالعمل أستاذاً في بازيل حيث قضى نحبه في هدوء عام ١٥٤١ في جو مدرسي .

٧ - أسس الإيمان

استأنف لوثر طريقه العام غير المستقيم باعتباره قساً لطائفة وأستاذاً في الجامعة - ودفع له الأمير المختار مرتباً قدره ٢٠٠ جيلدر (٥٠٠٠ دولاراً) سنوياً وكان كل طالب يضيف إليه أتعاباً زهيدة مقابل حضور محاضراته . وعاش لوثر صحبة راهب آخر ، وكان كل منهما يرتدى ملابس عامة الناس في دير أوغسطيني مع طالب يقوم بخدمتها وقال : « كان فراشي لا يرتب لمدة عام كامل حتى يصبح قدراً تفوح منه رائحة العرق ، ومع ذلك كنت أواصل العمل طوال النهار فإذا جن الليل أكون منهوك القوى إلى حد أني أتهاوى في الفراش دون أن أدري أن هناك خطأ ما » (٩٩) . وكان العمل الشاق يخفف له شهيته المفتوحة وفي هذا يقول : « إنني آكل كبوهيمي وأشرب كألماني والحمد لله أمين » (١٠٠) .

وكان يعظ كثيراً ولكنه في إيجاز يتسم بالإشفاق ، وبلغة بسيطة أخاذة تستولي على ألباب مستمعيه الأجلاف . وكانت رياضته الوحيدة هي الشطرنج

والعزف على الناي ، ويبدو أنه كان يجد متعة أكبر في الساعات التي يقضيها في مهاجمة « البابويين » . كان أقوى من عرفه التاريخ في الجدل لا يصدده عنه شيء . وكانت كل كتاباته تقريباً صراعاً متمزجاً بعبارات لاذعة تفيض سخرية وطعناً . وترك خصومه يتأنقون في اللاتينية الرفيعة بحيث لا يقرأ لهم إلا قلة من الباحثين وكان هو أيضاً يكتب باللاتينية عند ما يريد مخاطبة العالم المسيحي بأسره ، بيد أن الجانب الأكبر من أهاجيه ألفه بالألمانية أو كان يترجم فوراً إلى الألمانية لأن ثورته كانت وطنية ولم يزه مؤلف ألماني آخر في وضوح ألفاظه أو قوة أسلوبه وفي مباشرة عباراته وحدثها اللاذعة وفي تشبيهاته الموفقة والتي كانت أحياناً تبعث على الابتهاج في ألفاظ تمتد جذورها في كلام الناس وتلائم العقلية القومية .

ووافقت الطباعة أغراضه باعتبارها بدعة أرسلتها العناية الإلهية فيما يبدو فاستخدمها براءة لا ينضب لها معين ، وكان أول من جعل منها آلة للدعاية والحرب ولم تكن هناك وقتئذ جرائد ولا مجلات ، وكانت المعارك تذكىها الكتب والعجالات والرسائل الخاصة التي ديجت للنشر . وارتفع عدد الكتب المطبوعة ، في ألمانيا من ١٥٠ عام ١٥١٨ إلى ٩٩٠ عام ١٥٢٤ ، وذلك بحافز من ثورة لوثر ، وكانت أربعة أخماس هذه الكتب تؤيد الإصلاح الديني أما الكتب التي كانت تدافع عن العقيدة المحافظة فقد كان من الصعب أن تجده من يشتريها ، في حين كانت مؤلفات لوثر هي أكثر الكتب رواجاً في هذا العصر ، وكانت لا تباع في المكتبات فحسب بل كانت تباع عند الباعة الجائلين والطلبة المسافرين أيضاً ، وقد أحضرت ١٤٠٠ نسخة في سوق واحدة بفرانكفورت ، بل إن ما بيع منها في باريس عام ١٥٢٠ فاق ما بيع من أي كتاب آخر . وفي مطلع عام ١٥١٩ صدرت لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والأراضي المنخفضة وإنجلترا . وكتب أرازموس عام ١٥٢١ يقول : « إن كتب لوثر في كل مكان وبكل لغة ولن يصدق أحد مدى تأثيره في الناس » (١٠١) .

ورجع الأثر الأدبي القوي للمصلحين كفة المطبوعات من جنوبي أوروبا إلى شياها حيث ظلت على هذا الوضع منذ ذلك . كانت الطباعة هي الإصلاح الديني ، ولا شك أن جوتنبرج هو الذي جعل نجاح لوثر ممكناً .

وكان أعظم عمل قام به لوثر هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية . كانت ثمانى عشرة ترجمة مثلها قد تمت من قبل ولكنها اعتمدت على نسخة جيروم اللاتينية من الكتاب المقدس ، وحفلت بالأخطاء وصيغت عباراتها بأسلوب سقيم ، وكانت صعوبات الترجمة عن الأصل مروعة ولم تكن هناك بعد معاجم من العبرية أو اليونانية إلى الألمانية وكل صفحة من النص تشير مائة مسألة في التفسير ، وكانت اللغة الألمانية ذاتها لا تزال تفتقر إلى الدقة والإحكام في التركيب ، واستخدم لوثر في ترجمة العهد الجديد النص اليوناني الذي كان أرازموس قد نشره مع نسخة لاتينية عام ١٥١٦ ، وأكمل هذا الجزء عام ١٥٢١ ونشر عام ١٥٢٢ . وبعد عمل دائب استمر أكثر من اثني عشر عاماً ، ووسط كفاح دائم في مجال علم اللاهوت نشر لوثر العهد القديم بالألمانية ، ولكن بمساعدة ميلانكتون وعدد من الباحثين اليهود وبرغم عدم دقة الدراسة في هذه الترجمات فإنها كانت من الأحداث المهمة في هذا العهد ، فقد افتتحت الأدب الألماني وأصل اللغة الألمانية الجديدة الرفيعة في ساكسونيا العليا - باعتبارها اللغة الأدبية لألمانيا . ومع ذلك فإن الترجمات كانت غير أدبية عن عمد ، وعلى نهج اللغة الدارجة ، وقد فسر لوثر منهجه بطريقته الواضحة المعهودة فقال : « ينبغي ألا نطلب ، كما يفعل الحمير ، من الحروف اللاتينية أن تعلمنا كيف نتحدث الألمانية بل يجب أن نسأل الأمهات في بيوتهن والأطفال في الشوارع وعامة الناس في السوق . . . يجب أن نسترشد بهم في الترجمة ولسوف يفهموننا ويعرفون أننا نحاط بهم بالألمانية» (١٠٢) . ومن هنا كان لترجمته في ألمانيا نفس الأثر والجلال اللذين حظيت بهما نسخة الملاك جيمس المترجمة بعد قرن : كان لها تأثير حميد لا محذور له على لغة الحديث القومية ولا تزال أعظم عمل نثرى في الأدب القومي .

وطبعت في فيتنبرج مائة ألف نسخة من عهد لوثر الجديد إبان حياته ،
وظهرت في أمكنة أخرى اثنتا عشرة طبعة لم يرخص بها وعلى الرغم من
المنشورات التي تحرم تداولها في براندنبرج وبافاريا والنمسا فإنها أصبحت
أكثر الكتب رواجاً في ألمانيا وظلت كذلك .

وأثمرت ترجمات الإنجيل كنتيجة وعامل مساعد معاً وأعانت على أن
تستبدل باللاتينية اللغات الوطنية والآداب التي واكبت الحركة القومية والتي
سأيرت هزيمة الكنيسة العالمية في بلاد لم تكن قد تلقت اللغة اللاتينية وغيرها .

ولما كان لوثر قد أكب طويلاً على الكتاب المقدس وورث وجهة نظر
القرون الوسطى عن صدوره من الله فإنه جعله عن محبة خالصة المصدر
الأوحد لعقيدته الدينية وشريعته . ومع أنه قبل بعض الروايات المأثورة التي
لا تقوم على ما جاء في الكتاب المقدس - مثل تعميده الطفل والراحة يوم
الأحد - فإنه رفض أن يسلم بحق الكنيسة في أن تضيف إلى المسيحية عناصر
لا تعتمد على ما جاء في الكتاب المقدس وإنما تعتمد على عرفها وسلطتها مثل
المطهر وصكوك الغفران وعبادة مريم والقديسين وكان كشف فلا عن
« هبة قسطنطين » (هبة أوروبا الغربية المزعومة للبابوات) باعتبارها أضحوكة
عتيقة في التاريخ قد زعزع إيمان الآلاف من المسيحيين في الوثوق بروايات
الكنيسة وشكك في الشرعية الملزمة لمراسيمها وفي عام ١٥٣٧ ترجم لوثر
نفسه رسالة فلا إلى الألمانية . فالرواية يقوم بها إنسان عرضه للزالل أما الكتاب
المقدس فقد قبلته أوروبا بأسرها تقريباً وعدته كلمة الله التي لا يأتيها الباطل
من بين يديها ولا من خلفها .

ثم إن العقل أيضاً يبدو ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان في وحي من لدن الله
وقال « نحن المساكين ، الناس التعساء . . . نسعى في غرور إلى فهم الجلال
الذي يدق على الفهم لنور عجائب الله التي لا تدرك . . . ونحن نتطلع
بعيون مغمضة ، مثل حيوان الخلد ، إلى مجد الله » (١٠٣) . وقال لوثر : « أنت

لا تستطيع أن تقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر .

« إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التي كشف لنا الله عنها في كلمته أمام العقل مستحيلة تماماً ومناقية للمعقول وزائفة . فإذا كيف يعتقد ذلك الأحمق الصغير الماكر أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لتأكله ودمه لنشربه في العشاء الأخير ؟ . . . أو أن الموتى سوف يبعثون من جديد يوم القيامة ؟ . . . أو أن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء وولدتها ثم غدا رجلاً يتعذب ثم يموت ميتة مخجلة على الصليب (١٠٥) ؟ . . . إن العقل هو أكبر عدو للإيمان . . . إنه أفجر صنائع للشيطان كبغى فتك بها الحرب والجدام ، ويجب أن توطأ بالأقدام ويقضى عليها هي وحكمتها . . . فاقدفها بالروث في وجهها . . . وأغرقها في العماد » (١٠٦) .

وأدان لوثر الفلاسفة الكلاميين لأنهم سلموا للعقل بكثير من الأمور ولأنهم حاولوا أن يثبتوا العقائد المسيحية بالخضوع لمقتضى العقل ولأنهم حاولوا أن يوفقوا بين المسيحية وبين فلسفة (١٠٧) أرسطو ذلك الوثني الداهية المغرور اللعين .

ومع ذلك فإن لوثر خطأ بخطوتين في اتجاه العقل : جعل الموعدة ، وليس الاحتفال مركز شعيرته الدينية وأعلن في الأيام الأولى لثورته بحق كل فرد في تفسير آيات الكتاب المقدس لنفسه . واستن قانونه الخاص بصحة أسفار الكتاب المقدس : إلى أي مدى تتفق مع تعاليم المسيح ؟ وقال « إن كل ما لا يبشر بالمسيح ليس رسولياً حتى لو كتبه القديس بطرس أو القديس بولس . . . وكل ما يبشر بالمسيح يكون رسولياً حتى لو صدر من يهوذا وبيلاطس أو هيرودس » (١٠٨) . ورفض التسليم برسالة جيمس وأطلق عليها اسم : « رسالة الهشيم » لأنه لم يستطع أن يوفق بينها وبين رأى بولس

في التبرير بوساطة الإيمان ، واستراب في أن الرسالة من عمل العبريين إذ بدا أنها تنكر صحة التوبة بعد العماد (والملاك فإنها تؤيد الذين ينكرون التعميد النصراني) وقدر أولاً أن سفر الرويا مزيج لا يدرك من ضروب الوعد والوعيد « لا هي رسولية ولا نبوية » (١٠٩) .

« أما سفر عزرا الثالث فإنني أقذف به في نهر ألبا » (١١٠) . وعلى الرغم من أنه يقوم على عقلية وثنية وأن معظم أحكامه التي تقوم على شريعة الكتاب المقدس قبلها النقاد الإنجيليون المتأخرون وقالوا إنها ذكية وسليمة . وقال : « إن أحاديث الأنبياء لم يدون منها شيء بانتظام في حينه بل جمعها مريدوهم وسامعوهم فيما بعد . . . ولم تكن أمثال سليمان من عمل سليمان » . ولكن خصومه الكاثوليكية أكدوا أن الاختبارات التي وضعها للحكم على الصحة والوحي كانت ذاتية وتحكمية وتنبأوا أن نقاداً آخرين سيحذون حذوه ويرفضون الاعتراف بكتب مقدسة أخرى حسب أهوائهم وآرائهم حتى لا يبقى شيء من الكتاب المقدس يعتبر أساساً للعقيدة الدينية .

وباستبعاد الاستثناءات السالفة فإن لوثر دافع عن الكتاب المقدس باعتباره صحيحاً بخلافه وحرفياً . وسلم بأنه لو لم ترد قصة يونس في الحوت في الكتاب المقدس لسخر منها وعدها خرافة وبالمثل حكايته عدن والحية ، ويوشع والشمس ولكنه قال متى قبلنا القول بقداسة الكتاب المقدس ، فلا بد أن هذه القصص بالإضافة إلى الباقي حقيقة من كل وجه » . ورفض محاولات أرازموس والباقيين للتوفيق بين الكتاب المقدس والعقل عن طريق التأويل المجازي (١١١) وعدها من قبيل الإلحاد . ولما كان قد فاز بالطمأنينة الذهنية لا عن طريق الفلسفة ولكن عن طريق الإيمان بالمسيح كما صورته الأناجيل ، فإنه اعتصم بالكتاب المقدس باعتباره الملاذ الأخير للروح ، وعارض علماء الإنسانيات وعبادتهم للكلاسيات الوثنية فعرض الكتاب المقدس لا باعتباره نتاج فكر بشري ، بل باعتباره بركة من الله وعزاء للبشر .

وقال : « إنه يعلمنا أن نرى ونشعر ونلدرك ونفهم معنى الإيمان والأمل

والبر بطريقة مغايرة لما يستطيع أن يفعله العقل البشرى وعند ما تضيق صدورنا بالشر فإنه يعلمنا كيف تشع هذه الفضائل الضوء لكي يبدد الظلام وكيف أن هناك حياة أخرى خالدة بعد هذه الحياة الهزيلة التعسة التي نحياها على الأرض» (١١٢).

وعندما سئل عن الأساس الذي استند إليه في أن الكتاب المقدس من وحي الله أجاب ببساطة أنه استند إلى تعاليمه ولا يمكن إلا لأناس ألهمهم الله أن يكونوا مثل هذا الإيمان العميق الذي هو عزاء للنفس .

٨ - لاهوت لوثر

وعلى الرغم من أن لاهوته قام على تصديق حرفية ما جاء بالكتب المقدسة فإن تفسيره احتفظ لا شعورياً بالروايات الماثورة في القرون الوسطى المتأخرة . وجعلته قوميته عصرياً أما لاهوته فيمت إلى عصر الإيمان . وكانت ثورته موجهة ضد النظام الكاثوليكي وطقوسه أكثر منها ضد العقيدة الكاثوليكية ولازمه معظم هذه الثورة إلى النهاية . بل إنه حدا في ثورته حذو ويكلييف وهس ولم ينتهج أى منهج جديد . فثورته مثل ثورتها تكمن في رفض البابوية والمحالس الدينية والمراتب الكهنوتية والاهتداء بأى شيء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس ، وقد وصف مثلها البابا بأنه مناهض للمسيحية ووجد مثلها الحماية في رحاب الدولة . وتواصل الفكر من ويكلييف إلى هس إلى لوثر يعد الخيط الرئيسي للتطور الدينى من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر . فقد كان تواصل الفكر من الناحية اللاهوتية قد اعتصم بأراء أوغسطين عن القدر والرحمة ، وهذه الآراء كانت لها بدورها جذور في رسائل بولس الذى لم يعرف المسيح قط . وقد تساقطت تقريباً جميع العناصر الوثنية التي شابت المسيحية عند ما اتخذت البروتستانتية شكلها

المرسوم وانتصرت الهيبة اليهودية على الإغريقية وفاز الأنبياء على أرسطو
رائد فلسفة الجدلين وأفلاطون رائد علماء الإنسانيات وحول بولس باعتباره
أقرب إلى مصاف الأنبياء منه إلى مصاف - الرسل - المسيح إلى تكفير عن
خطيئة آدم وحجب العهد القديم العهد الجديد وأظلم يهوه وجه المسيح .

وكان مفهوم الله عند لوثر يهودياً ، وكان في وسعه أن يتكلم بفصاحة
عن رحمة الله وعثوه إلا أن صورة الله القديمة باعتباره منتقماً ثم صورة المسيح
باعتباره القاضى الأخير أكثر استقراراً في نفسه ، ولقد آمن دون أن يسجل
أى اعتراض بأن الله قد أغرق كل البشر تقريباً في الطوفان وأنه أحرق سدوم
وأهلك الأراضى والناس والإمبراطوريات بنفثة من غضبه وإشارة من
يده . ورأى لوثر أن « قلة قدر لها أن تنجو وأن كثرة كثيرة لحقتها اللعنة
إلى الأبد » (١١٣) . ونبتت من القصة الأسطورة التى تخفف من هول تلك الصورة
وهى تتناول الدور الذى تقوم به مريم فى الشفاعة وتبقى فيها اليوم الآخر
بكل ما فيه من فزع شديد للبشر الخاطئين بطبيعتهم . وكان الله فى غضون
هذا كله قد سلب الوحوش المفترسة والديدان والنسوة الخبيثات على الناس
عقاباً لهم على خطاياهم . وكان لوثر يذكر نفسه بين الفينة والفينة بأننا لا نعلم
شيئاً عن الله إلا أنه قوة مدركة كونية موجودة . وعند ما سأله شاب لحوح
من علماء اللاهوت : أين كان الله قبل خلق العالم ؟ أجاب بأسلوبه الخطابى
الفظ على طريقة جونسون « كان يبنى جهنم لهذه الأرواح الفضولية المقلقة
المغرورة من أمثالك » (١١٤) .

ولقد أخذ الجنة والجحيم قضية مسلمة وآمن بنهاية مبكرة للعالم (١١٥) . ووصف
جنة حافلة بالمسرات وفيها كلاب مدلاة « لها شعر ذهبى يلمع كالأحجار
الكريمة » (١١٦) ، وهى منحة طيبة لأطفاله الذين أعربوا عن اهتمامهم بمصير
كلابهم المدلاة . وتحدث فى ثقة مثل الأكويني عن الملائكة وقال إنها أرواح
كريمة لأجساد لها . ولقد تصور لوثر الإنسان أحياناً عظيمة لانهاية لها يتنازعها

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وهم الذين يعزى إلى اختلاف مشاربهم وإلى جهودهم كل الظروف التي تحيط بتصير الإنسان وفي هذا إقحام للزرادشتية في لاهوته . كما سلم تسليماً كاملاً بالمفهوم السائد في القرون الوسطى عن الشياطين التي تهيم في الأرض وتوسوس للناس وتغويهم بالإثم وتعرضهم للنحس وتمهد الإنسان طريقه إلى جهنم . وقال : « إن كثيراً من الشياطين تهيم في الغابات والمياه والبراري وفي الأماكن المظلمة المليئة بالبرك وهي متأهبة أبدأ لإيذاء الناس ، وبعضها يهيم في السحب الكثيفة السوداء » (١١٧) .

وقد يكون بعض هذا الاعتقاد إبداعاً تربوياً واعياً لمخاوف خارقة نافعة ، ولكن لوثر كان يتحدث بغير كلفة عن الشياطين ويبدو أنه صدق كل ما قيل عنهم . وقال « إنى أعرف الشيطان حق المعرفة » ، وذكر بالتفصيل أحاديثهم مع بعضهم بعضاً (١١٨) . وكان أحياناً يفتن الشيطان بالعزف على الناي وأحياناً كان يفرع الشيطان المسكين (١١٩) بأن يرميه بأقدح السباب (١٢٠) . وأصبح من عادته أن يعزو إلى الشيطان الأصوات الخيفة التي تصدر من الجدران وهي تنقلص من البرودة في الليل وذلك عندما كان يستيقظ على هذه الأصوات ، وكان في وسعه أن يستنتج وهو واثق أنها من عمل الشيطان ، وهو يحرم حوله وأن يستأنف نومه في هدوء (١٢١) . ونسب إلى فعل الشيطان ظواهر مختلفة لا تسر . سقوط البرد والرعد والحرب والطاعون ، أما الحوادث السعيدة كلها فهي في نظره من فعل الله (١٢٢) . وكان يجد صعوبة في إدراك كل ما نسميه القانون الطبيعي . ويبدو أن كل الترات الشعبي التي توني عن الطيف الصخاب أو الروح التي تحدث الضجة قد صدقه لوثر بخدافيه والشياطين يوثر أن تتقمص أجساد الثعابين والقردة (١٢٣) . وكان لوثر يرى أن الفكرة القديمة التي تذهب إلى أن في وسع الشياطين أن تضاجع النساء وأن تنجب منهن أطفالاً فمكرة صائبة ، بل إنه أشار في مثل هذه الحالة بضرورة إغراق الطفل الذي يولد نتيجة لهذه العلاقة (١٢٤) . وقبل السحر والعرافة على أنهما من الحقائق المسلم بها وكان يرى أن إحراق الساحرات على السارية (١٢٥) واجب

مسيحي بسيط . وكان يشاطره في معظم آرائه معاصروه سواء أكانوا من الكاثوليكية أم من البروتستانت .

ثم إن الاعتقاد في قوة الشياطين وقدرتها على الوجود في كل مكان بلغ في القرن السادس عشر درجة قصوى لم تسجل في أى عصر آخر وقد أفسد هذا الاهتمام بالشيطان كثيراً من اللاهوت البروتستانتي .

وازدادت فلسفة لوثر قتامة بالاعتناع بأن الإنسان بطبعه شرير وميال للإثم(*) ، وقد انتزعت الصورة الإلهية من قلب الإنسان عقاباً لعصيان آدم وحواء ولم يبق فيه إلا الميول الطبيعية . وها هو يقول : « ليس هناك من هو مسيحي أو ورع بفطرته . . . والناس والجماهر بعيدة عن روح المسيحية ولسوف تكون هكذا . . . والأشرا يفرقون دائماً الأختيار عدداً » (١٢٦) . بل إن أعمال الشر في الرجل الخير تفوق في عددها أعمال الخير لأنه لا يستطيع أن يهرب من فطرته وكما قال بولس : « لا أحد بار ، لا أحد » . وشعر لوثر « بأننا أبناء الغضب وكل أعمالنا ونياتنا وأفكارنا لا تساوى في الميزان أمام آثامنا » (١٢٧) . ومن جهة سير أعمال الخير فإن كل واحد منا يستحق العذاب المقيم ، وكان لوثر يقصد بعبارة « أعمال الخير » بصفة خاصة تلك الأشكال من الورع الطمسي الذي أوصت به الكنيسة - الصيام والحج والابتهالات إلى القديسين والقداسات للموتى وصكوك الغفران والمواكب والتبرعات للكنيسة ولكنه ضمنها أيضاً « كل الأعمال مهما كانت صفتها » (١٢٨) ولم يشك في مدى الحاجة إلى الإحسان والحب لتوفير حياة صحية اجتماعية ولكنه أحس (***) بأنه حتى لو كانت هناك حياة مباركة بمثل هذه الفضائل فإنها لا تستطيع أن تفوز بسعادة أزلية ويقول إن « الإنجيل لا يبشر بشيء من الجزاء عن الأعمال وإن من يقول إن الإنجيل نص على أن الأعمال هي وسيلة

(*) أو كما يجب أن نقول يولد الإنسان بفرائز تتفق مع مرحلة الصيد ولكنها في حاجة إلى كبح مستمر في الحضارة .

(**) انظر الطوبوات - اصحاح متى ٥ : ٣ - ١١ .

الخلاص أقول له بصراحة تامة إنه كاذب» (١٢٩) . ولا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة - فكل منها إهانة لإله لا حد لقدرته - أن تكفر عن الذنوب التي اقترفها خير الناس . ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا توضيح المسيح المنتدية - آلام ابن الله وموته - ، ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذا التكفير الإلهي . وكما قال بولس للرومان : « إذا كنت تقر بلسانك أن الرب يسوع وإذا كنت تؤمن في قرارة فؤادك بأن الله قد رفعه من بين الموتى فإنك سوف تنجو » (١٣٠) . وهذا الإيمان هو الذي « يبرر » - يجعل الإنسان باراً على الرغم مما اقترف من ذنوب ويجعله صالحاً للخلاص ، ولقد قال المسيح نفسه « كل من يؤمن ويعتمد سوف ينجو أما من يكفر فسوف تلحقه اللعنة » (١٣١) . وقال لوثر مستنتجاً منطقياً : « ولهذا فإن أول ما يجب أن يهتم له كل مسيحي هو أن يطرح جانباً كل يقين في الأعمال وأن يتقوى إيمانه وحده شيئاً فشيئاً » (١٣٢) واستطرد قائلاً في فقرة أزعجت بعض علماء اللاهوت وإن كانت قد أراحت كثيراً من الخاطئين :

« إن يسوع المسيح ينحني ويدع الخاطيء يقفز فوق ظهره وهكذا ينقله من الموت أية تعزية للأرواح التقيّة أن يعتصم بالمسيح على هذا النحو وأن تلفه في خطاياي وخطاياك وخطايا العالم بأسره وتعدّه هكذا يحمل خطايانا جميعاً ! وعند ما ترى أن خطاياك تلتصق به فعندئذ تنجو من الخطيئة والموت والجحيم إن المسيحية ليست إلا ممارسة متصلة الإحساس بأنك لا ترتكب خطيئة على الرغم من أنك تقترفها وأن خطاياك إنما توضع على كاهل المسيح . حسبك أن تعرف الحمل الذي يحمل خطايا العالم والخطيئة لا يمكنها أن تفرق بيننا وبينه حتى لو ارتكبنا ألف جريمة زنى كل يوم أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل ، ألا تعد هذه بشرى طيبة أن تعرف إنساناً غارقاً في الخطايا إلى أذنيه فيأتي الإنجيل يقول له : كن على ثقة وآمن تغفر لك خطاياك من الآن فصاعداً ؛ حالما يقتلع هذا الحائل تغفر لك خطاياك وليس ثمة شيء آخر تعمل من أجله » (١٣٣) .

ولعل هذا كان المقصود به تعزية وإنعاش بعض الأرواح المرهفة الحس التي كانت تجزع كثيراً بسبب ما اقترفت من خطايا . واستطاع لوثر أن يتذكر كيف أنه قد غالى يوماً في جسامته ذنوبه ورأى أنها لا تغتفر ولكن الأمر بدا عند بعضهم يشبه كثيراً قول تينزل المزعوم « أسقط قطعة نقدية في الصندوق تتبدد ذنوبك كلها » وكان الإيمان وقتذاك يفعل الأعاجيب التي زعموا من قبل أنها تتحقق بالاعتراف والتحلل من الذنوب والصدقة وصك الغفران . ومع ذلك فهناك فقرة تسترعى الانتباه : وجد لوثر الغيور الثائر كلمة طيبة يقولها عن الخطيئة ذاتها وقال عند ما يغويننا الشيطان بالحاح مزعج فقد يكون من الحكمة أن نستسلم لإغرائه ونقترف ذنباً أو اثنين .

« اسع إلى مجتمع رفاقك الطروبين واشرب واقصف وانطلق بالفحش وسل نفسك فلا بد للمرء أن يقترف أحياناً ذنباً كراهية واحتقاراً للشيطان حتى لا يعطيه الفرصة لكي يجعله يشعر بتأنيب الضمير على مجرد أشياء لا تستحق الذكر ، فالمرء يضل إذا اشتد فزعه من أن يقترف ذنباً . . . آه ! . . . بودي لو كان في استطاعتي أن أجد ذنباً عظيماً حقاً يقذف بالشيطان ! » (١٣٤) .

ولقد دعت هذه الأحكام العرضية المرحة إلى التأويل ، وفسر بعض أتباع لوثر شخصيته بأنه يتسامح في الفجور والزنى والقتل واضطر أستاذ من أنصاره إلى نصيح الوعاظ اللوثرين بأن يحرصوا على الإقلال ما أمكن من القول بأنه يمكن الحصول على البراءة من الذنب بالإيمان وحده (١٣٥) .

ومهما يكن من أمر فإن لوثر كان لا يقصد بالإيمان التسليم العقلي بغرض فحسب ، ولكنه كان يقصد المكابدة الحيوية الشخصية لاعتقاد عملي ، وكان على ثقة من أن الاعتقاد الكامل في أن عفو الله منح بسبب موت المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر يجعل الإنسان أولاً وقبل كل شيء صالحاً إلى الحد الذي يجعل مجوناً عارضاً تشيع فيه شهوة الجسد لا يترتب

عليه ضرر دائم ، ذلك لأن الإيمان سرعان ما يعود بالخاطيء إلى الصحة الروحية ، ووافق من صميم قلبه على فائدة الأعمال الصالحات (١٣٦) غير أن ما أنكره هو فاعليتها في سبيل الخلاص . وقال « إن الأعمال الصالحات لا تخلق رجلاً صالحاً ولكن الرجل الصالح يقوم بأعمال صالحات » (١٣٧) . وماذا يجعل الرجل صالحاً ؟ الإيمان بالله والمسيح .

وكيف يتأتى لإنسان أن يصل إلى مثل هذا الإيمان الذي ينجيه من عذاب الجحيم ؟ إنه لا يصل إليه عن طريق أعماله التي يثاب عليها بل إنه منحة يهبها الله ، بغض النظر عن هذه الأعمال ، إلى من يشاء أن ينجيه من عذابه وكما قرر بولس وهو يتذكر قصة فرعون « إن الله يتغمد برحمته من يشاء ويحرم منها من يشاء » (١٣٨) . والله قدر من اصطفاهم للسعادة الأبدية أما الباقون فقد تركهم محرومين من رحمته ملعونين ومخلدين في نار جهنم (١٣٩) .

« هذه هي ذروة الإيمان : أن تؤمن بأن الله ، الذي ينجي من عذابه قلة من عباده والذي يعاقب الأكثر منهم ، غفور رحيم وأنه تعالى عادل ، إذ سبق في تقديره أن قضى علينا باللعنة الأبدية لأنه . . . ويبدو أنه يرضى بتعذيت الأشقياء . وإذا استطعت بأي جهد عقلي أن أدرك كيف يكون الله رحيماً في الوقت الذي يصدر عنه الكثير من الغضب والظلم فلن تكون في حاجة إلى الإيمان » (١٤٠) .

وهكذا نرى أن لوثر في نعمة رد فعله القروسطي (*) ضد كنيسة عصر النهضة التي ارتدت إلى عصر الوثنية قد عاد لا إلى العقيدة الأوغسطينية فحسب ولكنه عاد إلى الترتوليانية : الإيمان بما لا يصدق ، وبدا له أن من الفضيلة أن يؤمن بالقدر لأنه كان بالنسبة للعقل أمراً لا يصدق ، ومع ذلك فقد رأى بالمنطق العسير أنه إنما دفع إلى هذا الاعتقاد بعدم قابلية الأمر للتصديق ، وها هو عالم اللاهوت الذي كتب ببلاغة لا تضارع عن « حرية الإنسان

(*) نسبة إلى القرون الوسطى .

المسيحي « قد رأى وقتذاك (١٥٢٥) في إحدى رسائله أنه إذا كان الله قادراً على كل شيء فلا بد أنه السبب الوحيد لكل ما يصدر من أفعال بما فيها أعمال الإنسان وأنه إذا كان الله عليماً بكل شيء فإنه يعرف كل شيء مسبقاً وكل شيء لا بد أن يحدث كما سبق في علمه وعلى ذلك فإن كل الأحداث في كل زمان قد قدرت بإرادته تعالى وأصبحت قادراً محتوماً للأبد . وانتهى لوثر مثل اسبينوزا إلى أن الإنسان « ليس حراً مثل كتلة من الخشب أو صخرة أو كتلة من الصلصال أو عموداً من الملح » (١٤١) . ومع ذلك فإنه لأمر أكثر غرابة أن تحرم الحكمة الإلهية نفسها الملائكة ، لا ، بل والله نفسه من الحرية فإنه تعالى يجب أن يعمل كما سبق في علمه فحكيمته هي قدره .

ولقد فسر أحد المجانين هذه العقيدة كما شاء له هواه : ضرب شاب عنق أخيه وعزا هذا إلى فعل الله الذي لم يكن هو إلا عبده العاجز فحسب « وحطم أحد المناطقه جسد زوجته بعصية حتى ماتت وهو يصرخ « الآن تمت إرادة الأب » (١٤٢) .

وتتدرج معظم هذه الاستنتاجات ضمناً في لاهوت القرون الوسطى ، وقد استخلصها لوثر من بولس إلى أوغسطين في تزمت لا يلين وبداء راغباً في قبول لاهوت القرون الوسطى إذا تجرد من سلطان كنيسة عصر النهضة ، فقد كان في وسعه أن يكون أكثر تسامحاً في قبول حتمية وجود جمهرة كبيرة من الملعونين منه في الخضوع لسلطان بابوات يشتمون في جمع الضرائب بصورة فاضحة . ورفض التسليم بالتعريف الكهنوتي للكنيسة بأنها هي الأسقفية وعرفها بأنها جماعة المؤمنين بالله وبآلام المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر ولكنه ردد العقيدة البابوية عند ما كتب يقول : « إن كل الناس الذين ينشدون الوصول إلى الله ويعملون من أجل هذا الوصول بأية وسيلة أخرى غير التوسل بالمسيح (مثل اليهود والأتراك والبابويين والقديسين

الزائفين والمهرطقة . . . إلخ) يسرون في ظلام دامس سادرين في الخطأ ولا بد من أن يموتوا آخر الأمر ويضيعوا في آثامهم» (١٤٣) . هنا ولدت من جديد في فيتنبرج تعاليم بونيفاس الثامن ومجلس روما (١٣٠٢) التي تقول : « لا خلاص للإنسان خارج الكنيسة » .

وأعظم مادة ثورية في لاهوت لوثر هي تجريد القسيس من منصبه وإباحته للقساوسة الحصول على راتب لا بصفتهم موزعين لا غنى عنهم للقربان المقدس ولا باعتبارهم وسطاء مختصين بين الله والناس ولكن بصفتهم خادمين اختارتهم كل أبرشية للوفاء بحاجاتها الروحية ، واسوف يبدد هؤلاء القساوسة ، بزواجهم وتنشئتهم لأسرة هالة القساوسة التي جعلت نظام القساوسة قوياً رهيباً ، فهم سيكونون « أولاً بين أنداد » ولكن أى إنسان في وسعه عند الحاجة أن يقوم بوظائفهم بل يحل تائباً من ذنبه . وعلى الرهبان أن يتخلوا عن عزلتهم الأنانية وحياة اللذة التي يعيشونها في الغالب وأن يتزوجوا ويكدهوا مع الآخرين ، فالرجل الذي يجر المحراث والمرأة التي تشتغل في المطبخ يعبدان الله خيراً مما يفعل الراهب وهو يتمم بصلوات غير مفهومة في تكرار يجلب النعاس . ولا بد أن تكون الصلاة هي الصلة الروحية المباشرة بين العبد وربّه ولا تكون ابتهالات بقديسين شبه أسطوريين . ومن رأى لوثر أن عبادة القديسين لم تكن معايشة ودية مواسية بين عزلة الحى وقداسة الموتى ، كانت ردة إلى عبادة الأصنام البدائية المشركة (١٤٤) .

أما القرايين المقدسة التي كان ينظر إليها على أنها حفلات يقيمها القساوسة للحصول على الغفران من الرب فإن لوثر هون من شأنها بقسوة فهي لا تنطوى على قوى معجزة وفعاليتها تتوقف لا على أشكائها وصيغها ولكن على إيمان من يتلقاها ، وتثبيت العماد والزواج والرسالة الأسقفية للقساوسة والمسيح المغالى فيه للمحتضر ليست إلا طقوساً لم يرتبط بها أى وعد يعفو الله في الكتاب المقدس ويمكن للدين الجليد أن يستغنى عنها . أما العماد فهناك بيئة

عليه في مثال يوحنا المعمدان ويمكن استبقاء الاعتراف السمعى باعتباره من المقدسات على الرغم مما يحيط من شكوك بالأساس الذي يستند إليه في الكتاب المقدس^(*). وأعظم قربان مقدس هو عشاء الرب أو العشاء الربانى . ويرى لوثر أن الفكرة التي تذهب إلى أن القسيس يمكنه بتعويذة من كلماته أن يغير الخبز إلى المسيح بخيطة تنطوى على التجديف ، ورأى مع ذلك أن المسيح يهبط من السماء بمحض مشيئته ليكون حاضراً بطريق التجسد مع الخبز والنبيد في القربان المقدس . وليس القربان المقدس سحراً كهنوتياً وإنما معجزة إلهية دائمة (١٤٥) .

ولا شك أن عقيدة لوثر في القربان المقدس وإحلاله عشاء الرب محل القداس ونظريته عن الخلاص بالإيمان لا بالأعمال الصالحات قد قوضت دعائم سلطة رجال الكهنوت في شمال ألمانيا .

وأخذ لوثر يروج لهذا النهج فرفض الاعتراف بالمحاكم الأسقفية والقانون الكنسى وأصبحت المحاكم المدنية في أوروبا اللوثرية هى المحاكم الوحيدة كما أصبحت السلطة الزمنية هى السلطة الشرعية الوحيدة . وعين الحكام الزمانيون موظفى الكنيسة وانتزعوا أملاكها وبدأوا فى الإشراف على مدارسها ومبرات الأديرة . وظلت الكنيسة والدولة مستقلتين إحداهما عن الأخرى من الناحية النظرية وإن أصبحت الكنيسة بالفعل خاضعة للدولة . وهكذا قدر للحركة اللوثرية التى كان يعتقد أنها الحياة بأسرها للاهوت أن تقدم ، بلا قصد ورغم أنفها ، ذلك التحول الشامل نحو الدنيوية الذى أصبح الموضوع الأساسى فى الحياة العصرية .

٩ - الثورى

عند ما سعى بعض الأساقفة إلى إسكات لوثر وأتباعه أطلق صرخة مدوية غاضبة كانت بمثابة النافوس المنذر بالدورة تقريباً ، فى كتيب « ضده

(*) استندل به فى الشهادة الشهيرة الاعتراف العلمى بالإثم على أن يتمه لإبراء العلم .

النظام الذى يطلق عليه بهتاناً اسم النظام الروحى للبابا والأساقفة » (يوليو ١٥٢٢) دمع البطارقة ووصفهم بأنهم « أكبر الذئاب » جميعاً وناشد كل الألمان الصالحين أن يطردوهم بالقوة .

« كان من الخير أن يقتل كل أسقف وأن تقتلع جنود كل مؤسسة أو دير ، فهذا أفضل من أن تزهق روح واحدة فما بالك بفقد كل الأرواح من أجل بهرجهم التافه وعبادة الأوثان . ما فائدة هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات ويتغذون بعرق الآخرين وكدهم ؟ . . . إنهم إذا رضوا بكلمة الله وسعوا إلى حياة الروح فإن الله يكون معهم . . . أما إذا لم يستمعوا إلى كلمة الله وثاروا غضباً وتوعدوا بالحرمان والحرق والقتل وبكل شر مستطير ، فماذا يستحقون غير ثورة عارمة تكتسحهم من فوق ظهر الأرض ؟ ولسوف تبتم إذا حدث هذا . إن كل من يتبرع بالجد أو بالمتاع أو الشرف للقضاء على حكم الأساقفة هم أطفال الله الأعزاء ومسيحيون صادقون » (١٤٦) .

وفى هذا الوقت انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة ، فقد آلمه تحريم بيع عهده الحديد أو حيازته فى المناطق التى تخضع لحكام من المحافظين فكتب فى خريف عام ١٥٢٢ رسالة عنوانها « عن السلطة الزمنية : إلى أى حد يجب أن تطاع » . وبدأها بأسلوب ودى للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدنى والأصل الإلهى للدولة . ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التى تقول بالحرية الكاملة للمسيحى . وأوضح لوثر أنه على الرغم من أن المسيحيين المخلصين ليسوا فى حاجة إلى قانون . . . ومع أن أحداً منهم لن يواجه الآخر بالقانون أو القوة فإنهم يجب أن يطيعوا القانون وأن يكونوا قدوة لغالبية الناس من غير المسيحيين المخلصين لأن فطرة الإنسان التى تمنح الإثم فى غيبة القانون سوف تمزق المجتمع إرباً . ومع ذلك فإن سلطة الدولة يجب أن تنتهى حيث يبدأ ملكوت الروح . من

هم هؤلاء الأمراء الذين يأخذون على عواتقهم أن يفرضوا على الناس ما يقرأونه أو ما يعتقدونه ؟

« لا بد أن تعرفوا أن الأمير الحكيم يندر وجوده حقاً منذ بداية الخليقة مثله في ذلك مثل الأمير الورع . فالأمراء في العادة أكبر الحمقى أو أسوأ الأفاقين على ظهر الأرض . إنهم السجانون والجلادون الذين يسلطهم الله على عباده ، وهم أدوات الله التي تحقق غضبه تعالى بعقاب الأشرار وللمحافظة على السلام بين الناس . . . ومهما يكن من أمر فإنني بكل إخلاص أنصح هؤلاء الناس الذين طمس الله على أبصارهم أن ينتبهوا إلى القول الموجز في المزمور ١٠٧ : (٢٧) « إن الله تعالى ينزل سخطه على الأمراء » وإني أقسم لكم بالله أن هذه العبارة الموجزة لو أصبحت سيفاً مصلتاً على أعناقكم بسبب خطئكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وذلك على الرغم من أن كل واحد منكم متين البنيان كالتركي ولن يجديكم فتيلاً تميزكم غضباً وتحمسكم للكلام فقد تحقق فعلاً بجانب كبير منه ، لأن . . . الرجل العادي يتعلم كيف يفكر . . . ثم إن الجماهير وعامة الناس تستجمع نقيمتها على الأمراء وعلى الناس بعد هذا ألا يعانون من طغيانهم وغرورهم فهنا ما لا يستطيعونه وإن يسمحوها به . فيا أيها الأمراء والسادة الأعزاء تمسكوا بأهداف الحكمة واهتدوا بهديها . إن الله لن يتسامح معكم بعد هذا ولم يعد العالم الذي كنتم فيه تطاردون الناس وتسوقونهم كالأنعام » (١٤٧) .

واتهمه رئيس وزراء بافاري بأن هذه دعوة للثورة تتسم بالخيانة ، وندد بهذه الرسالة الدوق جورج ووصفها بأنها إفك وحث الأمير المختار فردريك على أن يصادرها . وإكته على العكس من ذلك سمح بتوزيعها بما عهد فيه من اتزان . ترى ماذا كان يقول الأمراء لو أنهم قرأوا رسالة لوثر إلى فنزلس لينك Wenzel Link (١٩ مارس ١٥٢٢) ؟ « إننا ننتصر على الطغيان البابوي الذي طالما سحق ملوكاً وأمراء فكيف لا يسهل علينا إذن أن نتغلب

على الأمراء أنفسهم ونطأهم بنعالنا» (١٤٨) . أو ماذا هم قائلون إذا اطلعوا على تعريفه للكنيسة ؟ « أعتقد أنه لا توجد على ظهر الأرض إلا كنيسة مسيحية عامة ، حكيمة كالعالم ولكنها كنيسة مقدسة وهي ليست إلا جماعة القديسين . . . وأعتقد أن كل الأشياء على المشاع في هذه الجماعة أو في هذا العالم المسيحي ، وكل ما يملكه الإنسان من متاع ملك للآخر ولا يوجد شيء ملك لأحد فحسب» (١٤٩) .

كانت هذه سورة عارضة يجب ألا تؤخذ بمعناها الحرفي ؛ فالواقع أن لوثر كان محافظاً بل ورجعياً في السياسة والدين، بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى في القرون الوسطى ، وكان يعد نفسه ممن يردون الأشياء إلى أصولها وأنه ليس مبتدعاً . وكان يمكن أن يقنع بالحفاظ على المجتمع الزراعي الذي عرفه في طفولته واستمراره مع إدخال بعض وجوه التحسين التي تتسم بالبر . واتفق في الرأي مع الكنيسة في القرون الوسطى في إدانة الربا إلا أنه أضاف بطريقته المرححة أن الربا بدعة من عمل الشيطان وأسف لنمو التجارة الخارجية ووصف التجارة بأنها : « مهنة مرذولة» (١٥٠) واحتقر هؤلاء الذين يكسبون معاشهم بشراء السلعة بثمن رخيص وبيعها بثمن غال . وندد بالمحتكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار لأنهم « لصوص ظاهرون للعيان » ، وقال : « لكم تحسن السلطات صنعاً لو أخذت من هؤلاء الناس كل ما يملكون وطردهم من البلاد» (١٥١) ورأى أن الوقت قد حان لوضع « شكيمة في فم آل فوجر» (١٥٢) ، وانتهى إلى رأى يندر بالويل في رسالة عاصفة عنوانها : « عن التجارة والربا » (١٥٢٤) :

« ينبغي أن ينظر الملوك والأمراء إلى هذه الأشياء وأن يحرموها بمقتضى قوانين صارمة ، ولكني أسمع أن لهم مصلحة فيها وهكذا يتحقق قول أشعياء : « لقد أصبح الأمراء رفاقاً للصوص » وأنهم ليشنقون اللصوص الذين سرقوا جولدن أو نصف جولدن ولكنهم يتاجرون مع من يسلبون العالم بأسره . . .

وهكذا يشتق اللصوص الكبار صغارهم ؛ وكما قال كاتو عضو الشيوخ
الروماني : « الأغرار من اللصوص يزوج بهم في السجن ويطرحون لآلات
التعذيب بينما يسير اللصوص المعروفون للناس في الخارج يرفلون في
الحرير ويتحلون بالذهب » . ولكن ما هو حكم الله على هذا في آخر الأمر ؟
إنه سوف يفعل ما يقوله لخرقيال : أمراء وتجار ، لص مع آخر لسوف
يصهرهم الله معاً كما يصهر الرصاص والنحاس أو كما تحترق مدينة ؛ فبالمثل
لن يكون هناك أمراء ولا تجار بعد هذا . وفي هذه المرة أخشى أن يكون
هذا على الباب (١٥٣) .

وقد كان .